

الأبن

٣٠ مليم

إهــــــداء2006

الدكتورة / امانى عبد الرازق خاطر

الإسكندرية



العدد رقم ٢٦٧

الابن

للكاتب الفرنسى الكبير :

جورج سيمنون

تعريب

الرائد : حسن محمد أحمد

الفصـــل الاول

« ولدى »

هل ياترى ستبتسم حين تقرا هذه الكلمة وتشــعر بمـدى حيرتى واضطرابى وانا اكتبها لك ؟. فمنذ سنوات طويلة لم اسطر لك حرفا ، اظنه منذ كنت طفلا ترحل بعيدا عنى فى رفقة والدتك فى عطلاتك الدراسية وتضطرنى اعمالى للبقاء فى مكتبى ، وكنت اخصك وقت ذاك بسطر او سطرين ابدؤهما عادة بكلـمة « بنى » واحيانا « طفلى » او فتاى الصغير ، ولكنى ارى ان كلمة « ولدى » تحمل فى معناها وبين ثناياها كل الحب والقوة والاعزاز ، ومع ذلك فهى تبعث فى نفسى احساسا من الكآبة والحزن ، وكانى اكتب وصيتى !

ومهما كان الامر فلا مفر لى من ان ابدأ رسالتى بطريقة ما ، وانى لاشعر الآن بمثل ما كنت أشعر به حين كنت ادخل عليـــك غرفتك فألقاك غارقا بين كراساتك وكتبك ، فاقف مترددا لحظـات متهيبــا كأنى فى محراب ، ثم اجلس على طرف فراشــك وفى النهاية أتشاغل باشعال احدى سجائرى .

ولعل اكثر مايضايقنى انى لا اعلم ــ يقينا ــ متى ستقرا خطابى هذا ، او ما عساك تشعر به وقتئذ ، ولا أخفى عنك انى طالما فكرت فى بادىء الحال فى ان اتحدث اليك بنفسى ، ولذلك كنت أحضر الى غرفتك فى الفترة مابين عشائك واويتك لفراشــك ، ولـكن صدقنى يا ولدى ، كانت الكلمات تحتبس فى حلقى فاظل جالســا على حرف سريرك اتاملك بقلبى قبل عينى ، وانت مكب على كتابك معللا نفسى بالصبر حتى ترفع راسك وتلتفت نحوى قليـلا وانت تغمغم فى شرود . « ايه ! وكيف الاحوال ؟» .

لم يكن بيننا الكثير مما يقال ، وفى الواقع لم تكن نشعر بحاجة لتبادل اى حديث ، ولا اعلم هل كان سبب ذلك تحفظ كلينــا فى علاقته بالآخر ، او بعده عنه بقلبه وافكاره ؟.

وعلى اية حال فلاشك ان الكتابة اليك ايسر شأنا من الحـديث معك ، ففى وسعك ان تعيد القراءة مرات ومرات ، فتكتشف فى كل مرة آفاقا جديدة تساعدك على العثور على أجابات لتلك الاحاجى

التى كانت تحيرك من حين لآخر ، وان كانت ماتزال كلها أو بعضها على الأقل تسبب لى كثيرا من الآلام والقلق والأحلام المزعجة !.-

حاولت ـ كما ذكرت لك ـ مفاتحتك بالحديث ،وبالتحديد منذ الثالث والعشرين من اكتوبر صبيحة يوم دفن والدى .. بل اننى لا أزال اذكر تلك اللحظة التى اتخذت فيها قرارى المذكور .

كان ذلك فى كنيسة « لوفيسينيه » حين كنا نقف جنبا الى جنب فى الصف الامامى على يمين التابوت الكبير ، وصوت الأرغن يداعب أوتار القلوب ويشنف الاسماع ، ووالدتك تقف مع شقيقتى أمام الهيكل ، وباقى السيدات ينتظرن فى الخارج مع عمك « بيير فاشيه » .

ولم يكن عدد شهود الصلاة كبيرا : القس وغلامان يرددان الأناشيد ثم ضارب المغرق ، ونحو ثلاثين شخصا تركت اقدامهم الموحلة آثارا فوق الأرض الرخامية الناصعة البياض ، حيث كانت السماء تمطر مدرارا منذ الصباح ، وكنا قد مشينا خلف الجثمان من البيت حتى الكنيسة .

فى تلك اللحظة فقط ، اكتشفت فجأة انك أطول منى وارشق قواما فى معطفك الأسود الجديد الأنيق وشعرك المرسل الطويل الذى تعتقد امك انه اطول مما يجب ، ووجهك النحيل وقد رفعته شامخا بأنفك فى تحد للناس اجمعين ، ومن عينيك المثبتتين للأمام، كانت تنبعث نظرات قوية .

ترى كم مرة فى حياتك دخلت فيها بيتا من بيوت الله ؟ وهل تشعر فى نفسك برهبة حينما تشهد تلك الطقوس الدينية التى تجرى امامك ؟

لقد وقفنا معا فى ذلك المكان المقدس فى مرة سابقة تشابه مثل هذه الظروف تماما ، ولكن قبلها ببضعة شهور وفى الثالث والعشرين من يناير الماضى « اليوم نفسه من الشهر ، أليس هذا عجيبا ؟ » وكان ذلك بمناسبة وفاة امى ـ جدتك ـ وزوجة الرجل الذى يرقد الآن فى الصندوق تحت الغطاء الأسود ذى الصليب الفضى .

ولم اكن ـ حينما وارينا جثمان جدتك بالثرى ـ قد القيت اليك انتباها ، اذ كنت اظنك مجرد طفل ـ برغم تجاوزك عامك

السادس عشر ؟ ولكنى وقد رمقتك بطرف عينى الآن شعرت بأن من كان يقف بجانبى رجل رشيد زكى القلب دقيق الملاحظة يسجل كل شيء، فى ذاكرته .

وحين كنت تأتى معى الى « قصر ماجالى » كنت تنقل بصرك فى ارجائه دون ان تنبس حرفا ، ذلك القصر العتيق الذى عاش فيه ابواى، والذى لن يسكنه احد من بعدهما ، ولن تعود لنا به صلة بعد الآن ، كنت المحك وكأنك ترسم فى ذاكرتك ادق التفصيلات .

وقد استمعت خلال الأيام القليلة الماضية الى ما كان يدور من الحوار والنقاش العائلى فى امور الجنازة دون ان تفتح فاك بكلمة وقد ارتسم الضيق والملل على محياك وبك رغبة ملحة فى ان تنتهى من ذلك الأمر المكروه سريعا .

كذلك كنت اتأملك طوال الشهور الماضية حين كنت ادعوك ايام الآحاد لمرافقتى فى زيارة قصيرة لجدك حيث تمضى معه بضع لحظات قد تشيع فى نفسه الرضا والسرور، فكنت اقرأ فى ملامحك معانى الرفض والضيق ثم فى النهاية كنت تأتى معى بغير حماس أو رغبة صادقة .

انا لا الومك مطلقا يا بنى ، واظننى افهم شعورك .

ولكن ثمة حقائق كثيرة اود ان تعرفها لمصلحتك ومصلحتى ؟ كذلك لمصلحته هو ، ذلك الرجل الذى يرقد فى الصندوق والذى شيعناه منذ قليل ومعك عمك فاشيه حتى المقابر .

وليس مجرد الشعور بالحرج هو الذى منعنى من ان اصارحك بها شفاها بنفسى ، فقد رأيت أن الحكمة تقتضى أن اتريث بعض الوقت قبل ان افاجئك بها ، « ولا ادرى متى يطول انتظارك وانتظارى ! » ، ومن ثم رأيت ان الأفضل ان اكتب كل ما فى قلبى بين هذه السطور ، وستبقى مكانها حتى تقرأها وقد أصبحت زوجا وأبا وتتخذ بنفسك قراراتك دون اى تدخل أو تأثير متحملا كل التبعات والمسئوليات .

اذن ، فمن الجائز أن يقرأ جان بول — ابن السادسة عشرة هذه الكلمات ، كذلك من المحتمل جدا أن يقرأها نفس الشخص وقد غدا رجلا جليل المكانة ، وخط الشيب شعره ، مهيب الطلعة فى

الثـــلاثين أو الاربعين من عمره ؛ أو ربما في مثلّ ســـنى ـ ازداد بالحياة خبرة وبتصرفات الزمن علما ، ساتركها لك لتقراها بعـــد وفاتي ، ولا اظن انك ستنتظر طويلا ، فلن أبلغ أبدا ما وصلت اليه أمي العجوز التي عاشت احدى وثمانين سنة او أبي الشيخ الذي مكث حتى السابعة والسبعين .

لا تبتئس ؛ فانا لا احاول استدرار عاطفتك ، فالمـــوت حق ؛ ونحن آل فرنسوا لانخشـــاه ابدا ، بل على النقيض أنني ابتســـم حينما اتخيلك في مثل عمري ، تتحمل الهموم وتفكر في ابنـــك الذي سيرث اسمك ، وفيما عساك ان تحكم به على أبيك وجدك .

***

ولا تدهش اذا بدات حديثي معك عن الحاضر ،قبل ان اغوص بك في اعماق الماضي وهو لب الموضوع ، فاذا كنت تسأم ذلك لان هذا الحاضر هو الذي تعيش فيه ، وتعتقد ـ كما اعتقد انا ـ انك تعرفه كما تعرف ما في راحة يدك ـ فانه سوف يلقي شعاعا من نور على ذلك القديم ، فيجعلك اصدق حكما واصوب فهما .

***

ان عائلتك لتتألف اليوم منك ووالدتك وشـــــقيقتي آرلبت وزوجها فاشيه ، وقبل شهور ستة كان هناك أيضا جدتك وجدك، واكبر الظن ان كلا منهما قد ترك في نفســك آثرا يختـــلف عن الآخرين ، وكان بودى أن اعرف رايك في كل فرد منا : في جدك ، في امك ، او في انا شخصيا ، واى فكرة يا ترى قد كونتها عني كما تراني ويراني الناس .. ثم بعد أن اقص عليك وقائع هذه القصة ؟

ولقد كانت اسرتي أقل من اسرتك عددا ، لم تزد قط على ابي وامي وشقيقتي ، ثم بعض الاقارب منهم احياء انقطعت صلاتهم بنا أو أموات تحت الثرى في الرموس!

ولست ادرى تماما متى اكتشفت حقيقتي في تلك المجموعة ، فاذا بي لست الا قطعة من محرك ضخم يدور باستمرار على مر الاجيال والسنين ، غصنا رفيعا في شجرة ضخمة تمتد جذورهافي الاعماق ثابتة راسخة ، تذوى غصونها بتغير الفصول ، ولا تلبث

حتى تنبت لها براعم جديدة تأخذ دورها الجديد فى الحياة !وهكذا يخلف الأبناء الآباء والأجداد وتبقى الأسرة العريقة على مر الزمان ولا جديد تحت الشمس الا الأسماء والوجوه ، وهكذا ايضا كان جدك ، وقبله ابوه ، ثم انا وانت ، وابناؤك من بعدك الذين سينجبون لك حفدة والمحرك الضخم يدور مادارت الدنيا حول نفسها !

والآباء لا يعيشون الا من اجل ابنائهم ..

واعتقد ان عينى تفتحتا على تلك الحقيقة وانا فى العشرين من عمرى ، فى وقت يعاصر تلك الأحداث الهامة التى سوف ارويها لك فيما بعد ..

ولعلك قد أنصت مذهولا لتلك المناقشة الحادة التى دارت بينى وبين فاشيه زوج عمتك ليلة وفاة جدك ، وكنت أرمقك فى انتباه لأعرف صدى ذلك فى نفسك ، وفى أى جانب منا تقف ؟ ولكنك اكتفيت بالصمت .

فقد كان جدك - ومنذ بداية هذا القرن - منكرا لكل دين سماوى وكل الناس يعرفون عنه ذلك . مكتفيا بالانتماء الى احد المحافل الماسونية ، ولذلك لم ار كاهنا او قسا يدخل دارنا قط ، ولم أتلق فى طفولتى أو صباى حرفا من أى كتاب مقدس وماوطئت قدماى عتبة اى معبد أو كنيسة ، وكذلك نشأت انت ، وفى الوقت نفسه لا اذكر أننى سمعت قط احدا فى بيتنا يتحدث او يتناقش فى الدين أو يهاجم احدا فى معتقداته .

وكانت جدتك كذلك ايضا حتى قبل العام الأخير من وفاتها ، اذ فوجئنا جميعا وقد اصبحت كاثوليكية متعصبة ، وأوصت فى الحاف شديد أن يقام لجثمانها بعد وفاتها طقوس دينية كاملة ..

ولم تكن انت موجودا لترى غضبة « فاشيه » الكبرى ، حينما لاحظ انهم يعدون احدى غرف القصر فى « لوفيسيثيه » ليبيت فيها جثمان جدتك بين الصلبان والشموع ، اذ لم يكن فى البيت غرف معدة لذلك ، فثارت ثورته لما شاهد امى راقدة مغمضة العينين ملثمة الفكين تطبق اصابها المتخشبة على المسبحة وفوق صدرها الصليب ، فصاح محتجا رافعا يده فى وجه ابى مهددا :

- او سمحت للقس بأن يطأ عتبة هذا البيت ؟

ولقد ارتج على جدك ، وامتقع لونه وهو الذى كان برغم بلوغه السابعة والسبعين ما يزال مشدود القـــامة مرفوع الراس ..
ارتج عليه ولم يجد جوابا .

فنظر نحوى فى حيرة كانه يستلهم المعونة ، فواجهت فاشية واجبته فى حزم :
ـ هذا ما اوصت به امى قبل وفاتها ، ولابد لابى ان يحقق لها رغبتها الأخيرة !
وزار فاشيه كالأسد الجزع :
ـ الا يدرك هو انه بذلك التصرف يجعلنا اضحوكة بين الناس؟
« ولم يكن هو الا ابى » ..
وكان فاشيه مايزال هو ذلك الشاب الاصفر النحيـــل الذى لخطب شقيقتى فى احد الايام ، لم يتغير شىء فى شكله او وزنـه دوهما واحدا برغم مرور الشهور والاعوام ، وكان فى ذلك الوقت رئيسا للكتبة فى مقاطعة « شارنتى » التى كان جدك حاكما عاما لها بيد انى ســـأعود اليك مرة اخرى .. اما الآن فهو من الاعـلام المشهورين ممن يشار اليهم بالبنان ، ويحتل مركزا رفيعا اكسبه ثقة فى النفس وعنادا فى الطبع ربما وصل الى حد القحة ! يكاد من ينظر اليه وهو يتحدث بتلك اللهجة ليلة وفاة امى يظن ان اسرتنـا لا تكون الا منه فقط ، وكأنه صاحب الحق وحده ، فى التحدث بلسانها والتصرف فى شئونها وانه المسئول عن الحفـــاظ على كرامتها وهيبتها !
ـ « اما كفاكم ما فعلتم ، كلكم للاساءة الى سمعتى واسمى؟ » .
ولقد كرر ـ بعد ذلك بستة شهور ـ تلك العبـــارة امامك ؛ فقطبت جبينك دهشة مما جعلنى مضطرا لان اذكر ما حدث فى المرة الاولى ، ولابد انك فكرت طويلا فى معنـــاها ، ما لم يكن هو او شقيقتى ارايت اوهما معا قد ذكرا لك شيئا دون علمى .
ولم يتمكن برغم عنـاده ، من الحيلولة دون حضور شقيقتى للصلاة على جثمان امها فى الكنيسة ، لكنه ظل جالسا فى سيارته فى الخارج وامام الناس على قارعة الطريق !.
ولقد تكرر ذلك المشهد بعد وفاة ابى ، ولكنى تحملت وحدى

المسئولية كاملة رغم ان ابى لم يطلب منى قط ان تقام له جنازة دينية ، فلم يحدث بيننا خلال تلك الشهور القليلة او طوال حياتى اى حديث فى الدين او الفلسفة السياسية .

كان يعيش فى الفترة من يناير حتى اكتوبر وحيدا فى (لوفيسينيه) ، تقوم بخدمته عجوز تحضر فى الصباح لتعد له طعامه وفراشه ، ثم تنصرف الى بيتها وزوجها كل مساء .

اتراك تدرك معنى الفراغ والوحدة لرجل مسن فى بيت كبير متعدد الحجرات ، وكان فى وقت ما يشغل منصبا خطيرا ترمقه الابصار وتنحنى له الهامات وترمقه العيون فى اجلال واحترام ؟

ولعلك لم تتأثر بوفاة ذلك الرجل كما لم تتأثر بوفاة زوجته فى أثناء اشتغالك بامتحان الشهادة الثانوية ، لأنك كنت قليل الاختلاط بهما ، والزيارات النادرة التى كنت تصحبنى فيها لرؤية جدك الشيخ كانت تسبب لك صداعا ومللا : فالقصر فى ذاته لم يعد يلائم جيلك الحاضر ، والذكريات التىاعتدت ان أجعلهاموضوع حديثى مع جدك فى حضورك لم تكن تثيرك او تهمك ، ثم إنه قلما كان يوجه اليك خطابا ، وربما تعجبت من ذلك وساءك الا يعيرك انتباها ، لكنه كان يختلس النظر اليك بطرف عينه ، ثم ينظر نحوى ، فهل خطر ببالك ماذا كان يعنيه بتلك النظرات ؟

ومع ذلك فقد كان من واجبى ان اجعله يراك ، وكنت أعلم انه يشعر بالسرور العميق لذلك ، وبعد فترة كنت انظر فى ساعتى واقول لك ممو ها :

ـ اما قلت لى انك ستقابل بعض أصدقائك فى الخامسة ؟

ولم اكن اعرف شيئا عن اصدقائك او مواعيدك ـ وليس ذلك عتابا ـ فكنت تقف خجلا مستأذنا فى الانصراف وتمد يدك فى ارتباك قائلا :

ـ الى اللقاء يا جدى .

وكان يجيبك كما اعتاد ان يجيبنى وكما افعل معك الآن :

ـ الى اللقاء يا ولدى .

والقبلات لا تعرفها أسرة لافرنسوا حتى فى طفولتى كنت أطبع زكارها شبح قبلة على خد ابى وامى ثم انصرف مساء .

وكنا نرقبك وانت تنصرف ولعلك توهمت انى اعجل فى انصرافك لتخلى لى المكان لنتبادل حديثا لا تحب أن تسمعه ولكنك تخطىء فى ذلك ، فالذى كان يحدث بينى وبين ابى هو الشىءالذى يحدث بيننا – حين ادخل غرفتك واجلس على طرف فراشك مفكرا . هكذا اعتدنا ان نجلس معا بين الظلال وكل منا غارق فى افكاره ، وحين نتعب من طول الصمت يقطعه احدنا فيتحدث عن كتاب او حادث ما أو عن شخص يعرفه كلانا او عن الدواء الذى كان ابى – خلال شهوره الاخيرة – يتناول منه انواعا كثيرة .

بيد أننا لم نتحدث عن جدتك ، أو عن « لاردشيل» أو من اقام فيها من الناس : أو ما وقع من الحوادث فى عام ١٩٢٨ .

ولعلك تظن أن حينا من الدهر قد انقضى منذ ذلك الوقت ، فانت نفسك لم تظهر فى الوجود الا عام ١٩٤٠ وهو عام من المؤكد انه قسم التاريخ قسمين .

ولكن يخيل الى أن تلك السنة قد انتهت بالامس فقط ، فالسنوات تمضى سراعا حتى لارتاب فى انى حقيقة قد بلغت الثامنة والاربعين من عمرى ، وفى أن من واجبى –سواء رضيت ام ابيت – أن ابذل التضحيات التى بذلها ابى نحوى .

وبعد فمن يدرى ؟ وبما شاءت المقادير ايضا ان اشهد نهايتى فى ذلك القصر القديم فى «لوفيسينه» لولا اصرار شقيقتى وزوجها – لافتقارهما الدائم للمال – على بيعه .

لا تنزعج فانا احدس ما يدور ببالك ، ولست حزينا على فقده، بل ما اردت ان اشير اليه انما هو كناية عن رغبتى فى ان اقول لك: ربما اضطررت يا ولدى يوما ما الى أن تجلب ابنك الصغير من يده ليزور اباك المتقاعد الذى اشتد به الهرم وهو كاره لزيارتى !

ابتسم ايها الصغير ، واقسم لك أن حديثى اليك لن يكون بعدئذ كئيبا أو حزينا !.

ولكن ينبغى اولا أن انتهى من موضوع الوفاة والجناز ،ولست اجد تفسيرا لما يعتمل فى نفسى من القلق بخصوصها ، حقا كان ابى ينكر الاديان جميعها ، انحدر من اسرة عريقة ريفية وادى للدولة خدمات جليلة ، فهل كان من البنائين الاحرار ، لست واثقا من

ذلك . ولولا عمك فاشيه ما خطر ببالى شىء من ذلك ، فقد اشار لى مؤكدا انه كان يشغل مركزا هاما فى الطائفة الماسونية ، وان المحفل قد ساعده عام ١٩٢٨ وخفف من هول المصيبة التى وقعت آن ذاك .

واعود فاكرر انه لم يصارحنى حتى وفاته باية رغبة اخيرة يطلب منى تحقيقها .

واذا كنت قد ادخلت جثمانه الى الكنيسة فذلك لانى توهمت انه كان يتمنى ذلك ويرغب فيه من صميم قلبه وان لم يظهره على لسانه ، اما ان كنت مخطئا فى ظنى فأنا التمس منه الصفح والمغفرة .

هذا عن جدك ، أما عن جدتك فلا اجد فى نفسى الشجاعة لأسألك عما تذكره فى طفولتك عنها ، ولم يقع بصرك عليها الا وهى جثة بطيئة الحركة متورمة الجسم ، هدها مرض الاستسقاء ، وملأ ساقيها بالماء وفى عينيها نظرة غريبة بلهاء !

لم تأت لرؤيتك عند ولادتك ، فقد كانت تلازم البيت لمرضها ، فحملناك اليها بعد شهر من ولادتك حتى تراك .. وكان فى يوم أحد من ابريل ، طقسه جميل رائع وشمسه دافئة ساطعة ، وكنت قد وصلت ومعى امك توا من باريس فهبطنا المحطة الجميلة واخترقنا حديقة قصر ماجالى اليانعة الزهور والتى تصدح فيها الطيور ، ولكنا ما كدنا ندلف الى الداخل ، داخل تلك الغرفةالكئيبة المظلمة ذات السقف المنخفض ، والتى اعتاد ابواى الجلوس فيها بجوار المدفاة العتيقة التى تتصاعد رائحة دخانها فيزهق الانفاس حتى شعرنا باننا تركنا الحياة وراءنا فى الحديقة ، واننا نطأ عتبة عالم آخر ! مقبرة عفنة يخيم عليها شبح الموت الرهيب !.

وقال ابى مخاطبا أمى التى كانت تجلس فى مقعد كبير ذى ذراعين :

ـ هذا هو حفيدك جان بول !

فنظرت نحوى تحدجنى بعينين جامدتين ، ولم يشرق وجهها حتى بشبح ابتسامة ! ومدت ذراعيها فى صمت ، وفى تلك اللحظة لمحت الفزع والتردد واضحا على امكالتى نظرت نحوىمستفسرة.

وامسكت انا انفاسى خشية ان تفلت كتلة اللحم الصغيرة التى هى انت ، من بين يديها البطيئتى الحركة بسبب اعيائها وضعفها .

ولكن امك كانت تفكر بطريقة اخرى ، لعلنى كنت اشاركها فيها بنصيب ، فقد خشينا ان تحل بك اللعنة يا ولدى ونحن نسلمك يامن تمثل الامل والمستقبل الى يد الفناء والشيخوخة والهرم !.

ومعذرة اذا اعترفت لك بأنه قد ضايقنى حين ذاك ان ارى تلك السيدة التى كانت سبب وجودى، وارضعتنى لبن ثديها وحملتنى بين ذراعيها .. تنحنى فوق وجهك الوردى الصغير ، وفوق شفتيك الجميلتين الطاهرتين اللتين لم يلمسهما انسان حتى يلوثهما بانفاسه الحارة !

ثم لم تعرك بعد ذلك اهتماما ، وعندما تعلمت المشى وكنت تدرج مع بعض الأطفال فى الحديقة فتتعثر وتسقط . كنت تسبب لها رعبا شديدا كلما صرخت أو بكيت بصوت مرتفع ، فقد كانت اقل الاصوات تسبب لها خوفا وانزعاجا .

وكان ابى يكبرها باربعة اعوام فقط ، فارق بسيط ربما لايلحظه من فى عمرك ، ولا يلحظه اى انسان بين رجل وزوجته بلغا هذا القدر من الشيخوخة .

ولابد انه من بين تلك الذكريات المحفورة فى ذهنك عن «لوفيسينيه» ، صورة جدتك وهى فى مقعدها الكبير بجوار المدفأة مكانها الذى لم يتغير قط ، وربما عجبت فى نفسك من انها لاتؤدى أى عمل فى الدار ، حتى غزل الصوف او التطريز الذى اعتادت كل امرأة ان تشغل نفسها به ، ولم تكن تقرأ أيضا وليس فى الدار مذياع ، فكانت تجلس ساكنة فى مقعدها عيناها مشدودتان الى الامام ، لاتنبس بأى حرف فاذا ما سقطت احدى الجمرات المشتعلة من المدفأة فوق السجادة لم تكلف نفسها عناء الانحناء والتقاطها !

واذكر أن ابى كان ـ ذات يوم ـ خارج البيت فى مهمة عاجلة ، وكانت مدام برين قد انتهت من عملها وانصرفت لمنزلها ، وحين عاد وجد قطعة خشب مشتعلة سقطت من المدفأة فاحرقت دائرة

متسعة من خشب الأرض،هذا وامى جالسة ساكنة تنظر فى بلاهة كأن الامر لا يعنيها !

اتكره ان تكون مثل هذه العجوز المسكينة جدتك ؟

وما قولك لو علمت انها كانت فى شبابها مثـال الحيـوية والنشـاط تمضى معظم عطلاتها ونزهاتها فى الحديقة التى كنت تلعب فيها فى صباك ، وقت ذاك كانت جدتك احدى بطلات الكروكيت، تتردد ضحكاتها المرحة بين ارجاء القصر ، لقد ذكـرتنى انت بذلك حينما عثرت منذ أيام على مضرب صدىء من الحديد فى الحديقة، وسألتنى ماذا يكون ؟.

ولم يكن قصر ماجالى ـ كما تراه الآن كئيبا حزينا مظلـما ، ولقد شاهدته بنفسى فى طفـولتى ، كان يا ولدى اجمل بيـوت لوفيـسينيه،تتلألأ أنواره فى الليل ويقصده صفوة القوم وعظماؤهم فى كل وقت ، وتزخر حديقته على الدوام بالأطفـال يلعبـون ويتأرجحون ويمرحون ! .

وهكذا حينما كانت جدتك تتخذ مكانها على ذلك المقعد بجوار المدفأة وتجلس ساكنة : كانت تحلم بذلك الماضى البعيد وتنصت فى لذة واهتمام لأصوات مرح الطفولة البرىء الذى تتخيله يمـلأ اسماعها . ولم يحاول ابى أن يوقظها من احلامها او يعيدها لعـالم الحقيقة والواقع ، مكتفيا بأن يرعاها ويهتم بتمريضها والعناية بها حتى تلفظ انفاسها الأخيرة فى هدوء وطمأنينة .

ومنذ عامين ، وكان مسيو لانج الساكن فى البيت المقابل لنـا قد توفى وهو فى المعـاش منـذ وقت طويل ، واستاجر البيت عروسان حديثا الزواج ، تشاجر معهما أبى بسبب ارتفاع صوت مذياعهما ، وكانا يتركان النوافذ مفتوحة على مصاريعها .

وكم كان أبى يتعذب حينما يأتى بعض أطفال الجيرة للعب الكرة فى الفضاء أمام منزلنا ، فكلما صاح أحدهم ـ والله يعلم انهم كانوا دائما يصرخون مثلما كنت تفعل انت أيام الآحاد ـ ترتعد امى وتنتفض فزعا كما لو لدغها عقرب ! حتى يضطر الى أن يخرج فيتحدث مع كبيرهم . ولست أعلم ـ على وجه اليقين ـ كيف دار الحديث بين الطفل والشيخ ؟ بيد انى اعتقد ان الاطفال جميعا كرهوا ابى وأمى من

تلك اللحظة ، ولم يفهموا قط ان الشيخين ينشدان الهدوء وهمـا يقضيان الايام الأخيرة من حياتهما ، كذلك لم يخطر ببـــال تلك العروس التى كانت تخطر دواما فى الشرفات بثوبها القـــرمزى الحريرى معجبة بشبابها وجمالها انها ستكون فى أحد الايام مثـل جدتك !

وكثـــيرا ما كان الاطفال يزحفون كالهنود الحمر ويجـذبون الجرس فى عنف ثم يولون الأدبار ضاحكين مسرورين او يلقـــون القاذورات والأوساخ فى صندوق البريد المعلق على الباب !

فهل شعر بأن وجوده أصبح غير مرغوب فيه بين ابناء هـــذا الجيل ، وان كل ما يحدث له ليس الا اشارة تنبىء بأن حياته قد آذنت بالنهاية ؟ .

وقبل ان يشل المرض تفكير امى ويقعدها عن الحركة كان يقوم ببعض الاعمال القضائية فى مكتبه الذى لا يبعد كثيرا عن محطـة « لوفيـسينيه » فقد كان يحمل الدكتوراه فى القانون ويجد سعادة كبيرة فى العمل والسهر على القضايا برغم بلوغه تلك السن الكبيرة، ويتردد كل مساء على مقهى كولوتى . وهو مشرب من الطراز القديم له موائد ومفارش ومرايا على الجدران على النمط الأمريكى . وهناك يجلس مع بعض رفاقه من الشيوخ ويلعب دورا او دورين من « البريدج » فاذا امتد شوط اللعب قليلا بدا ينظـــر فى قلق الى ساعة الحائط ، كان يعد الوقت بالثوانى حتى لا يتخـــلف ابدا عن العودة فى السابعة تماما مهما كانت الظروف ، ففى تلك اللحظـة تنصرف مدام برين الى بيتها بعد أن تعد المائدة وتضع الطعام فى الفرن ليظل ساخنا .

وكان هو الذى يقدم الطعام ، ثم يغسل الصحون ايضا ، وتبقى له بعد ذلك ساعة ليقرأ فيها الصحف .

هل تشعر بالسأم حينما احدثك بكل ذلك ؟ فالاولاد فى سنك يتلهفون على كل ما كان جميلا نظيفا صـــــغيرا فى عمر الربيع ، ويمتعضون من كل قديم تقادم عليه الزمن واكل الدهر عليه وشرب، بل ربما تمنوا زوال ذلك القذى من امام اعينهم !.

ولكن لا تنس ان ذلك الشيخ المتهالك لم يكن غير جدك ، تجرى

دماؤه في عروقك وتبرز بعض ملامحه وصفاته في محياك ، ابيت ام رضيت !

ولا تحسبني اقول ذلك مدافعا عن ابى ، او لاخفف من مساوىء الشيخوخة التى تهددني أنا ايضا عما قريب ، فلسوف تزداد عمقا في الفهم حينما أصل في قصتي الى ما حدث في سنة ١٩٢٨ التى هى اصل كل بلاء ، وسبب كل شيء سمعته في (لوفيسينيه) او في بيتنا في ميدان ماكماهون .

ومنذ خمسة اعوام - حينما ازدادت حالة امى سوءا - كف ابى عن الذهاب الى مكتب المحاماة ، كذلك توقف عن السهر في مقهى كولونى ، واكتفى بأن يغيب ساعة او بعض الساعة لشراء الحاجات من السوق ، ومثلها بعد الغروب يتمشى على قدميه حتى لا يمرض او تتيبس مفاصله اذا كف عن الرياضة .

وظل كذلك . حتى بعد وفاة امى . لم يغير من عاداته قط ، ولم يمرض قط ، بل لم يشعر طيلة حياته بحاجته الى زيارة اى طبيب ، كان دائما مرفوع الراس نشيط الحركة مشدود القامة كابن العشرين ، يعنى بثيابه واناقته كأنه عريس ليلة الزفاف !

وحينما سألت الطبيب في (لوفيسينيه) عن سبب وفاته - فقد وجدناه ذات مساء بمفرده منبطحا على وجهه فوق السجادة بجانب فراشه حيث سقط - هز الطبيب كتفيه ونظر الى مليا ثم قال : قتله الحزن !

وكان من عادته أن يدفن الاحزان في قلبه فلا تظهر على وجهه ، ولم تدمع عيناه حينما ودع شريكة حياته ، ولكنه أمسى أكثر رقة واشد عطفا .

ومما عجبنا له انه تبنى هريرة صغيرة عثر عليها ضالة في الحديقة ذات صباح تموء جوعا وترتعد بردا فحملها في رفق ، واشترى لها « بزازة » صغيرة ملأها لبنا ومضى يرضعها ويضمها الى صدره في حب وحنان حتى اشتد عودها ، وكانت هذه القطة تسليته الوحيدة حتى قضى نحبه ! .

بيد أن ذلك كله ربما لا يفسر سبب كراهيتى لعمك فاشيه او عدم رضاى عن عمتك آرليت التى كانت تنتهج سياسة عدم

الانحياز الا انها كانت تؤيد زوجها في معارضته اجراء الطقوس الدينية لأبي .
أو ربما كان الفضل لزهره الجرانيوم في اتخاذى ذلك القرار المفاجيء نحو ابي ! انك لتعرف تلك الزهرة الرائعة التي طالما تناولناها بالحديث ونحن على مائدة الطعام ، والتي كانت تبدو وحيدة فريدة في أصيصها الصغير الجميل في النافذة المواجهة لنا في ميدان ماكماهون ، وكانت لعانس عجوز استأجرت الغرفة الخشبية العليا فوق السطح : ومع ان جميع سكان الطوابق الاخرى من الأثرياء ذوى الاسماء المعروفة ، لم نكن نعرف من هي ؟ او من اين انت ؟ او كيف تعيش ؟ سوى ما أخبرتنا به خادمتنا «اميلى» ذات يوم من انها تدعى الآنسة اوغسطين .
ولعل مما استرعى انظارنا الى تلك الزهرة ، انها كانت تطل وحدها على الميدان ، فنوافذ الطوابق والدور جميعها خالية من الزهور . وكانت تظل في مكانها أيام الصيف ليلا ونهارا ، ولكن ما تكاد ليالي الشتاء الباردة تبشر بالقدوم حتى تخاف عليها الصقيع وترفعها قبيل الغروب ، ثم تعود فتضعها في شمس الصباح الدافئة ، وكنا نقول : انظروا ! هذه زهرة الآنسة أوغسطين قد عادت الى النافذة !.
ومن تلك اللحظة شعرت بأن ثمة رابطة خفية بين زهرة اوغسطين وهرة ابي ! .
فكل مخلوق منا يشعر في وقت ما بحاجته الماسة الشديدة الى شيء يتشبث به في شيخوخته ويؤنس وحدته ولقد اختارت جدتي في الدين ملاذا يؤنس وحدتها في آخر ايامها حتى القبر .
ولا اخفي عنك انني ليلة الصلاة على الجثمان في الكنيسة قد سحرت بما شاهدته عيناى بين الظلال : المنبر والحواجز الخشبية اللامعة ، واضواء الشموع ورائحة البخور المعطر وثياب المنشدين ، وصوت الترتيل الذى كان يتردد صداه تحت القباب العالية المرتفعة المزينة بالنقوش مختلطا بنغمات الارغن ودقات الدفوف النحاسية ، حتى التماثيل التي تصور القديسين تبعث في نفسي الحائرة راحة لم أشعر بمثلها من قبل .
وشيئا فشيئا اختلط كل شيء في راسي : الهرة وزهرة

الجيرانيوم ، وصوت الارغن ورائحة البخـور والتراتيل ، ومنظر القس المهيب ، بعباءته الكهنوتية ، وهو يغمـر اصـــابعه من الماء المقدس .

واختلست نظرة الى ابى فى تلك اللحظة فوجدته مطرقا برأسه فى خشوع ، وكأنه يريد أن يخفى عن الناس دمعة وحيدة تترقرق فى مقلتيه ، او ربما خيل الى ذلك !

الفصل الثانى

قرات ذات يوم عبـــارة فى كتـــاب ما ، راقتنى وتغلغلت الى قلبى ، ولست اذكر تمـــاما : هل كان ذلك فى قصة قصيرة او رواية كبيرة ، برغم أنى لست مولعـــا بقـراءة الـــكثير من ذلك النوع من الادب ؟ وكانت بقـــدر ما تعيهـــا ذاكرتى « ان اهم لحظة فى حياة الانسان هى التى يموت فيها ابوه ! » .

واستطيع ان اراهن من يشاء باى شىء دون أن اكون مجازفا على ان هذا الكاتب رجل فى مثل سنى او اكبر قليلا ، فالنـــاس المتقاربون فى الأعمار يعرف بعضهم بعضا من افكارهم المشتركة ، ولا اخفى عنك انى تدبرت طويلا فيما تعنيه تلك العبارة حتى وضح لى بجلاء : لماذا كانت وفاة رب الاسرة حدثا جليلا بالنسبة لحيـــاة الابن ؟ ذلك لانه يجد نفسه وقد اضحى بين عشـــية وضحاها رجلا بمعنى الكلمة يتحمل كل تبعات الحياة ومسئولياته !.

***

من لحظات وجيزة ، رايت الدهشة بادية عليك حينما دخلت غرفتى ووجدتنى جالســا الى مكتبى أسطر هذه الـكلمات وانا فى ثوب العشاء ، فقد تسمرت قدماك بالباب وانت تلقى نظرة خاطفة الى ما امامى من الأوراق .

ــ اوه !. معذرة لم اعرف انك تعمل .

وقد اجبتك :

ــ لا ، لست مشغولا .

ــ انما كنت ابحث عن علبة سجائر .

وكنت أعلم انك تستضيف صديقا فى غرفتك ، فقد رايتـــ

حينما دخلت عليك غرفتك منذ ساعة ، فتى اسمر مليح الوجه كثا الشعر له عينان سوداوان جميلتان ، وكان يجلس بجوارك وبين يديه كراسة ، وما كاد يرانى حتى وثب واقفا فى احترام ، وقدمته الى قائلا : صديقى جورج زابو .

ولقد سألته :

ــ افى « الليسيه كارنو » ايضا ؟ .

فأجابنى فى صوت موسيقى :

ــ اننى اتهيأ لدخول امتحان البكالوريا مثل ابنك .

ثم اردف باسما :

ــ وان لم أكن لسوء الحظ فى ذكائه والمعيته ! .

وما كنت قد سمعت بعد ان رفاقك يقدرون فيك ذكاءك ،وربما كانوا على حق ، فقد بلغنى ان اساتذتك يرون فيك معالم النبوغ والرغبة الجادة فى الدرس والتحصيل ، ومع كل ذلك فانى ــ وانا ابوك ــ لا اعرف الكثير عنك !

وحتى اصدقاؤك لا اعلم عنهم شيئا ، ماعدا النادر جدا ممن افاجئه لديك من قبيل المصادفات مثل جورج زابو ، وكنت المح معالم اللهفة على وجهك والرغبة الشديدة فى انصرافى وعدم اطالة مكوثى معكما .

واستطرد زابو يقول فى ادب جم حين رآنى ارتدى ثوب العشاء :

ــ معذرة لحضورى فى هذا الموعد غير المناسب ، كنت ابحث عن ورقة فيها بعض تمارين الجبر وانا فى سبيل مراجعة هذه المادة فى بيتنا فلم اجدها ولما كان صديقى جان بول اقرب زملائى الينا . .

ــ اتسكن قريبا منا ؟

واتسعت ابتسامته وهو يجيب :

ــ بل فى المنزل الملاصق لكم تماما .

وشعرت كأنما ثمة ما يربطنى بهذا الفتى ، ليس اسمه فحسب ولا محياه الوسيم الذى كان يذكرنى بشىء جميل حبيب الى نفسى وانما هو احساس غريب خامرنى بانى اعرفه منذ وقت طويل .

وحتى لا اسبب لك مزيدا من الضيق انصرفت وانا اقول :

ــ استمرا فى دروسكما .

ثم عـــدت الى غرفة الجلوس حيث كانت أمك تعـد كئوس الشراب للضيوف ، ولم يـكن من عادتك أن يحضر ســهراتنا ؛ ولـكنك كنت تحضرها كارها بناء على اصرار أمك ، فتمكث بيننا دقيقة او دقيقتين ثم تفـر هاربا الى المطبخ ، وعندما اردت أن أهديك سترة للعشاء بمناسبة عيد ميلادك السادس عشر قلت لك :

ـ لابد للانسان أن يتعود حضور العشاء بسترة خاصة وهو فى السادسة عشرة ، والا فلن يعرف كيف يرتديها اذا تقدم به العمر !

واجبتنى بأنه ما زال فى الوقت متســع وانك لا تميل الى تقييد نفـسك بمثل تلك الشكليات ، وكان الحق معك يا ولدى ؛ فانا نفسى لا افعل ذلك الا مضطرا ، ولست أحب تلك السهرات التى ادمنت امك عليها ، فهى اذا لم تقض المســاء فى السينما دعت لدارنا بعض مشاهير القوم مهما كان سبب شهرتهم !

وكان قد حضر لزيارتنا هذا المساء ـ آل ترمبلى ـ وميلدرد وبيتر هوجان اللذان كانا يدعواننا بأسمائنا المجردة على الطريقة الامريكية ، وكذا النائب لانير الذى يعتبر البيت بيته ، وزوجته وابنته ميربيل .

وحينما راتنى امك سالتنى ـ من اجل ميربيل بلا شك ـ :

ـ هل بول هناك ؟ .

ـ معــه صديق يستذكران دروسهما معـا ، ولقد تركتهما للتوى غارقين لآذانهما فى الجبر ! .

وبياتريس لانير من اعـز صديقات والدتك وخاصة بعد أن أمسى زوجها المحامى لانير عضوا فى البرلـمان عقب الانتخـابات الأخيرة ، وكان واضحا لـكل ذى عينين أن ميربيل تنصب شباكها حولك ، وأنت عنها غافل .

وحتى أجعلهم يتركونك وشأنك اردفت :

ـ لم اكن اعلم أن له صــديقا يقيم فى البيت الملاصق لنا ، بل وفى عامه الدراسى نفسـه ! لقـــد رايته فوجدته فتى مهذبا وجميلا اسمه جورج زابو .

ورايت النائب يتبادل نظرة ذات معنى هو وزوجته التى قالت تسأل والدتك :

ــ أتعرفينه يا اليس ؟ .

ــ لم اسمع به من قبل ، ولا اعلم هل بنات اليوم يفعلن ذلك ايضا ؟ ولكن جان بول لم يحدثنى قط عن اصدقائه أو حياته الخاصة .

ــ انت تعرفين امه على اية حال «وذكرت اسم احدى ممثلات باريس المشهورات » .

وحينما حضرت الى غرفتى تسأل عن صندوق السجائر سألتك بلا اكتراث :

ــ أتعرف من تكون امه ؟ .

فاجبتنى ببساطة : نعم ، طبعا .

ولكنك لا تعرف اى حياة مملوءة بالمتناقضات تعيشها صديقك ؟ .

فالملايين من الناس فى كل أرجاء الدنيا يعرفون امه ويعجبون برشاقة قوامها وملاحة وجهها ، كما يعجبون بفنها الرائع . وانا نفسى ــ حين كنت أصادفها فى طريقى بالشانزليزيه ، تتهادى كالغزال وعلى كتفيها معطف من الفراء الثمين زادها فتنة وجمالا والناس يتابعونها بأنظارهم ، والشباب والفتيات من طلبة المدارس يتدافعون نحوها ملتمسين أن توقع لهم بامضائها على كراساتهم ــ لا اخفى عليك انى كنت اشعر بعنقى تلتوى للخلف بالرغم عنى لأشبع عينى من النظر الى وقارها وحسن هندامها .

ترى . . هل يكون اى انسان سعيدا بمثل هذه الأم ؟.

واذا كانت حياة الناس ملكا لهم وحدهم ، يعيشون كما يحلو لهم ، فان حياة اهل الفن ملك لجماهير العشاق وملايين المعجبين يتعطشون لدس انوفهم فى كل صغيرة وكبيرة فى شئونهم الخاصة ، فالناس كلهم يعلمون انها لم تتزوج زواجا شرعيا الا منذ اثنى عشر عاما فقط ، وكان صديقك جورج فى الخامسة من سنى حياته ، ومع ذلك لم يستمر زواجها اكثر من عام .

وزابو نفسه الذى ما يزال على قيـــد الحياة ، لا يستقر فى بلد واحد ، فهو بالأمس فى اليونان واليوم فى بنـاما وغـدا فى الولايات المتحدة يباشر اعماله الكبيرة فى كل تلك الجهات ، وهو ايضا ممن يشار اليهم بالبنان فحياته العـــامة والخاصة مثار اهتمام الجماهير والصحف .

وهو لا يرى ابنه الا مرة واحـدة كل عام ، فى مدينة فيشى التى اعتـــاد ان يمضى فيها شهرا للاستشفاء فيمضى ابنه تلك الفترة معه .

ولست اعلم : هـل يداوم على الاتصال بولده فى غير ذلك مستفسرا عن متاعبه وتقدمه فى دروسه ومشاركته فى مشـــاكله كمـــا يفعل الآباء نحو ابنائهم ، او يكتفى الابن بمتابعة ما تنشره الجرائد والمجلات المصورة عن تنقلات ابيه على ظهر يخوته الضخمة وسياراته الفخمة وخيوله التى تجرى فى ميـــادين السباق او مغامراته الغرامية مع النســاء من كل لون وجنس ؟ .

وظل ضيوفنا يتحدثون ولعلهم ما زالوا يتنـاولون اسرة زابو بالتجريح والتشريح .

وفى البداية ســعلت زوجة الدكتور ترمبلى لتسترعى نظر السيدة لانيير ، بان ابنتها الشــابة الصغـيرة تنصت الى ذلك الحديث ، ولـكن السيدة لانيير قالت :

ـ لا ارى باسا من ان نتحدث فى وجود ميرييل ، وقد يكون لديها ما تضيفه الى معلوماتنا .

وعندئذ .. انسحبت لانفرد بنفسى .

لم اكن اعادى مخلوقا وخاصــة ضيوفنا .. او اكره رؤيتهم .

بيد انى كنت اشعر بان لا مكان لى بينهم ، فاتركهم لشانهم وانطلق الى مكتبى .

***

وحين كنت فى الثامنـــة من عمرك لابد ان احد زملائك فى المدرسة قد سالك يوما ما :

ـ ما حرفة ابيك ؟ .

فنحن ـ وان لم تكن واسعى الثراء ـ يعلم جميع اصدقائك

التلاميذ والباعة وسكان الحى جميعا الذين يعرفوننا ، اننا فى سعة من العيش .

فنحن نسكن فى اجمل احياء باريس واهمها على قيد امتار من قوس النصر ، وفى مواجهتنا يقيم رئيس الوزارة كما يجاورنا كبار الساسة ورجال الفكر والمال والسفراء .

ولدارنا ـ شان جميع الدور فى ميدان ماكماهون ـ بوابة ضخمة من السنديان اللامع عليها مقابض نحاسية رائعة ، ومدخل متسع تغطيه السجاجيد الحمراء التى تمتد فوق درجاته الرخامية ، وغرف جميلة مشمسة فسيحة الارجاء .

وعندنا الوصيفة اميلى التى لم تفارقنا منذ خمسة اعوام ، ثم الطباخة العجوز زوجة الرجل الذى يعمل فى الحرس الجمهورى .

ثم لدينا سيارة لاباس بها شكلا وموضوعا ، وان لم تضاه فى روعتها مئات السيارات التى تقف فى منحنى الميدان القريب من بيتنا .

واخيرا ، وليس آخرا فان والدتك تضع فوق كتفيها فراء ثمينا يساوى وحده ثروة طائلة ، بالاضافة الى ذلك المعطف الجميل الذى اشتريته لها ايام زواجنا المبكر .

وكدت انسى ان اذكرك باننا نذهب كل صيف الى ساحل الاركاشون ، اما فى الشتاء فنقضى اعياد راس السنة فى ملهى كبير . ثم نذهب للتزحلق فوق جليد سويسرا .

ولا ريب فى أن جميع اقرانك فى الليسيه كارنو من ابناء الذوات وفى مستواك نفسه تقريبا ، فليس ثمة ماتخشاه من اسئلتهم الفضولية كما كان يحدث لك وانت فى المدرسة الابتدائية .

واكاد اقسم ان احدا من اصدقائك الصغار قد سألك « ماحرفة ابيك ؟ » وانك قد ترددت كثيرا قبل أن تسألنى :

ـ من اين تحصل على المال يا ابى ؟ .

فلقد اعتدت ان ترانى اخرج فى الصباح حاملا حقيبة اوراقى ثم اعود فى الظهيرة للغداء ، وفى المساء اعتكف فى مكتبى واتناول عشائى وحيدا ، واذا ما احدثت جلبة او رفعت صوتك وضعت

امك سبابتها على شفتيها وتقول لك :
ـ اش ! لاتزعج اباك ، انه يعمل !
واذا ما بدا على ضيق أو افلتت منى اعصابى فى اثناء الطعام تقول امك معتذرة :
ـ ابوك مرهق قليلا .
واذكر انى اجبتك وقت ذاك باسما بقولى :
ـ احصل على المال كأى انسان بالعمل .
ـ وما عملك ؟
ـ اناخبير فى شركة التامين .
ورايتك تقطب جبينك الصغير فى حيرة ، لانك لم تشف فضولك . فمن بين اقرانك ابناء لاطباء او قضاة او محامين . ومنهم من هم اولاد اناس مفرطى الغنى لايعملون ، ومنهم من هم اقل ثراء ؟ او ربما فقراء عاملون فى المتاجر او المصانع ، ولكن ليس بينهم من يعمل ابوه خبيرا فى شركة تأمين .

ـ وهل لك مكتب تعمل فيه ؟ وهل هو مكتب كبير ؟
وكان الوقت صيفا . والنافذتان الكبيرتان مفتوحتان على مصاريعهما وزهرة الآنسة أوغسطين تبدو فى اتم رونقها وبهائها فى الاصيص الجميل على حرف نافذتها ، وكنت فى احسن حالاتى صفاء ، فأسعدنى أن اراك تهتم بى اخيرا ، واجبتك فى رضا وسرور :
ـ ان مكتبى فى اعظم المبانى فى باريس واضخمها بشارع لافيت ، شارع الذهب والمال حيث تتداول الأيدى بلايين الفرنكات كل صباح ، وليس بفرنسا كلها شارع مثله ، وتملكه اكبر شركة تأمين فى العالم .

وثق بأنى لم اقل ذلك غرورا ، ولكنها الحقيقة التى قد تعرفها الآن بعد أن تجاوزت السادسة عشرة ومع ذلك فقد عدت تسالنى :
ـ اتجلس خلف نافذة الصرافة ؟
ـ كلا .
ـ اتكتب طوال اليوم وتحل تمارين الحساب ؟

ـ تقريبا ، اننى احسب احتمالات الحياة والاخطار .
وعندئذ نهرتك امك فقالت : عسير عليك ان تفهم ذلك الآن . استمر فى عشائك .

فاجبتها غاضبا : حسنا ، اننى مستمر !
ولم اكتف بذلك فقد اردت ان اشبع فضولك ، واخذتك معى مساء الاربعاء الى شارع لافيت ، ولاحظت عليك معالم الدهشة والرهبة وانت تدلف من بين الباب البرونزى الكبير الى الردهة العريضة الطويلة ذات الرخام الاسود اللامع ، وسألتنى مشيرا للحارسين ذوى الثياب الرسمية والزرائر الذهبية وهما يؤديان لى التحية :
ـ هل هما شرطيان ؟
ـ كلا ، بل هما حارسان .
ـ ولماذا يحملان مسدسين فى حزاميهما ؟
وحينما حيانى كبير الخدم بالباب قلت :
ـ لماذا يعلق سلسلة فضية حول عنقه ؟
كانت تلك الفترة الوجيزة التى قضيتها معى وقتئذ من اجمل لحظات حياتى ، ولا تسل عن سعادتى وانا اريك المصعد الكهربى الذى يسع عشرين شخصا ، والمماشى الطويلة المكسوة بالسجاد السميك ، وعشرات الغرف ذات الابواب المصنوعة من الخشب الثمين اللامع وعلى كل منها رقمها النحاسى ، كذلك شعرت بالسرور وانا اصعد بك الطابق الثالث من مؤسستنا الضخمة التى تعمل كأنها خلية النحل ، الى حيث غرفتى الخاصة وعلى بابها لافتة « ممنوع الدخول » فسألتنى فى دهشة :
ـ لماذا لايسمحون للناس بالدخول ؟
ـ عمل الخبير الحسابى لايتصل بالجمهور ، ولاينبغى ازعاجه .
ـ وما السبب ؟ .
ـ ذلك لأن عمله ذهنى شاق يحتاج للهدوء ، وايضا فى غاية السرية .
وبدت عليك امارات الارتياح حينما دخلت غرفتى الواسعة الانيقة ورايت مكتبى العريض وتليفوناته الثلاثة وبجواره الخزانة

الحديدية الضخمة ؟ والآلة الالكترونية الحاسبة ؟ لم غرفة المساعدين المحاسبين وبجوارها غرفة الكتبة الذين يعملون تحت امرتى ، والارفف التى تغطى جدرانها حتى السقف والحافلة بالمجلدات والملفات .

ولم تات بعد ذلك لزيارتى الا مرتين او ثلاث مرات فى مرورك العابر . اما لتحمل لى رسالة من والدتك ، او لاننا تواعدنا على اللقاء ، وكان آخرها منذ شهرين لاغير حين جئت فى السادسة مساء لارافقك الى الحائك الذى يخيط لك ثيابك .

ومنذ ذلك اليوم لم تسالنى عن طبيعة عملى ، ولعلك تكون قد وجدت وقت ذاك الاجابة التى اقنعتك ، او ربما تلقيت بين دروسك فى (الليسيه) عمل الخبير الاكتوارى فى شركات التامين .

وعلى اية حال ، فما اشك ان ابن الثامنة قد كون فى راسه صورة عن ابيه ، فانا اشغل مكانا وسطا بين درجات السلم الاجتماعى ارفع شانا من اولئك الموظفين الذين رأيتهم يعملون فى مكاتبهم بالطوابق السفلى ، وادنى قدرا من اولئك المديرين الذين يجلسون فى مقاعد وثيرة تدور حول نفسها ويعبثون بسلاسل ساعاتهم الذهبية بين اصابعهم المزينة بالخواتم ذات الفصوص الضخمة ، ولهم غرف خاصة لاستقبال الزائرين وجلوسهم حتى يسمح لهم بالمثول بوساطة الحجاب على الأبواب .

وباختصار انت لم تمتلىء بى زهوا وافتخارا ، كذلك لحسن الحظ لم تصدم فى ابيك مما يجعلك تحنى راسك بين اقرانك ذلا وعارا .

وربما تخيلتنى فى راسك الصغير رجلا معدوم المواهب والرغبة فى المجد والطموح ، يهرب من المسئوليات والمغامرات ، فهل لى أن اسالك بدورى ؟ ماذا تتمنى أن تكون بعد عشرة أو عشرين عاما للأمام ؟

انا لم احاول ان اسالك قط ، لعلمى ان الاجابة — ومن طفل فى سنك — لن تكون سهلة او يسيرة المنال ، وامامك المستقبل مازال عريضا حافلا بالاحداث والمفاجآت على الرغم من انه كثيرا

ماوجه اليك ضيوفنا ذلك السؤال ، والناس مغرمون بتوجيهه دائما لأطفال أصدقائهم على سبيـــل المداعبة : ماذا تحب ان تكون عندما تكبر يابنى ؟

ويبدو الغضب على وجه أمك حينما تسمعك تقــول : لست ادرى !

فتقول لضيوفها معتذرة : ـ يخيل الى ان جميع اطفال هــذا الجيل على هذا الطراز ، لا يعلمون ولا يبالون ! ولا يحددون هدفا معينا للمستقبل كل ما يهتمون به فى هذه الايام هو الجــرى الى المدرسة ، ثم الذهاب الى السينما !.

وكنت الحك تطرق برأسك خجلا ، فأرثى لك ، فهل تراك قد احســـت وقتئذ بأن قلبى معك ، وانى لا أومن بتاتا بما يعتقــده بعض الناس من ان الدنيا تشهد اجيالا اسوأ من سابقيها .

اما أنا حينما كنت فى مثل عمرك ويفاجئنى احــدهم بذلك السؤال السخيف ـ فانى كنت اجيبه على الفور

ـ سأدرس القانون ، لا لرغبة حقيقية فى نفسى . بل علمى ان تلك الاجابة تسعد ابى ، فقد كنت ارتجف فزعا من مجرد التفكير فى ارتداء « روب » المحاماة مواجها الجمهور والخصوم والقضاة ، او فى اى عمل له احتكاك مباشر بالناس ، وكان حلمى الاكبر هو ان اغدو استاذا فى العلوم انزوى فى معملى الخاص اجرى فيــه ماأشاء من الابحاث بعيدا عن العيون والانظار !

ثم انتهى بى المطاف لاتولى منصب المحاسب الاكتوارى فى أهم شركات التامين بفرنسا .

وصدقنى ـ ولا اقول ذلك زهوا او غرورا ، اننى اؤدى من خلف ذلك الباب اللامع المغلق المعلقة عليه لافتة « ممنوع الدخول » عملا بالغ الأهمية شديد الحساسية فى عالم المال والاقتصــاد ، لست حقا ممن يجرى الذهب بين اصابعهم ، أو ممن ترمقهم العيون فى تلك المكاتب الواسعة ذات التماثيل الرخامية الرائعة والاثاث الفاخر ومع ذلك فانا الجندى المجهول الذى يحمل على كاهله اثقل الاعبــاء !

وستدهش حين اقول لك : انى قد حققت ايضا حلمى الكبير « استاذ العلوم الذى يجرى الابحاث الخطيرة فى معزل عن الناس » فانتى داخل مكتبى ابحث علميا وتحت مجهر مكبر طبيعة الكوارث بكل انواعها برا وبحرا وجوا ، سواء اكانت عن وفاة او حريق او غرق او حوادث سفن وطائرات ، او مخاطر طبيعية واقتصادية وجنائية ، ربحا او خسارة .

ومن اجل هذا ، رايت فى مكتبى تلك الآلة الالكترونية الحاسبة التى اثارت فضولك .

ومعذرة ان كنت ابعث فى نفسك الملل وانا اذكر لك ذلك .

ولكنى اريد ان اثير فى نفسك الشعور بالاهتمام بعمل ابيك ، فهل تصدق مثلا ان كل كشف جديد فى دنيا الطب والدواء يقلب تقديراتنا كلها راسا على عقب ، وان اى تغيير فى رغبات الناس او ما اعتادوه من طعام او شراب او كساء يقلل او يضاعف الحد الادنى الذى ينبغى ان يدفعه المؤمن عليه ، وان اقل خلاف فى تقدير سرعة الرياح او شدة الامواج او مدى ماتتعرض له البلاد من وباء مثل الانفلونزا او الكوليرا ، تحملنا خسائر تزيد عن بلايين البلايين من الفرنكات ، بالاضافة الى تلك الزيادة المطردة فى السيارات التى تجرى على الطرق البرية بسرعة البرق . والآلات الكهربية التى لا يخلو منها بسبب تقدم الحضارة اى مصنع او مكتب او بيت ويستخدمها الناس فى كل شىء ، وما سببه كل ذلك من كوارث فى الارواح والاموال !

وهكذا ترى ان جميع اولئك البشر الذين ينطلقون امامك فى شوارع باريس وعواصم البلاد الاخرى يدخلون الآلات ذات العقل الالكترونى ، ويخرجون منها ارقاما ورموزا وعلى اساس تقديراتنا تعمل هذه المؤسسة الضخمة من اول ذلك الساعى الصغير حتى مديرها الكبير !

واكاد اشعر بنفسى ــ وقد غدوت مجموعة من الرموز والارقام ، حتى اولئك الضيوف الذين تركتهم توا مع والدتك اوانى فقدت الاهتمام بهم كمخلوقات من دم ولحم ، مما يفسر لك غرامى فى

الاعتكاف وحدي .
ومنذ سنوات وانا ارقبك خفية لأرى : هل تحب امك اكثر منى ، اقصد : هل هى اقرب الى قلبك منى ؟ وهل تحقق فى خيالك الصورة التى يتمناها كل ابن لأمه ؟
انها ـ وان كانت صارمة حازمة فى معاملتها لك ، كما هى معى احيانا ـ لا ينقص ذلك من حقيقة حبها لك ، وهو حب يختلف كما وكيفا عما تشعر به هى نحوى .

واكاد المس من طريقتها انها تريد ان تخلق منك رجلا مثاليا ، تحددت صورته فى احلامها ، وانها فى سبيل ذلك قد تشتط فى قسوتها كلما بدر منك ما يعكر صفو تلك الصورة الجميلة التى تحب ان تقدمها فى طبق من الذهب لمن اختارتها لك شريكة العمر «ميريل» حتى تليق بمصاهرة وزير المستقبل او ربما اصبح رئيسا للوزارة قريبا او بعد حين !
انا لا ابخس والدتك قدرها ، او احاول ان احط من شانها امام عينيك .
ولعلك قد ادركت بما اوتيت من ذكاء وفطنة اننى وامك لسنا بالزوجين المثاليين بما تحويه العبارة من معان ، ولا اعنى بذلك ان احدا منا يكره الآخر او يتمنى فراقه ، فنحن راضيان قانعان بان نكون صديقين فحسب ، لكل منا غرفته الخاصة ، نشترك فى اوقات الطعام ، كما نشترك فى الاسم الواحد .

وقلما نتشاجر فى وجودك ، وفى الحق نحن لا نتشاجر ابدا فى هذه الايام ، لاننا لانلتقى الا نادرا وفى المناسبات .
ولم يحدث ذلك فجاة ، بل تدريجيا وعلى مر الايام ، وبعد ان تزوجنا ببضعة شهور .
وانا لا الومها فى ذلك مطلقا ، فالذنب ذنبى بمفردى ، وانا الذى اسأت لنفسى ولها ايضا .

ولكن مهلا ، فما زال امامنا متسع من الوقت حتى نخوض معا ذكريات الماضى .
وما بدات قصتى بالحديث عن جدك الا لان مراسم دفنه هى

التى اوحت الى بالكتابة اليك ، واهم من ذلك ايضا انه كان اهم شخصية لعبت دورها فى ماساة عام ١٩٢٨ ، كذلك كان الضحية الاولى فى اسرة فرنسوا ، وقد شاءت الاقدار أن يتلطخ اسمه وهو فى اوج مجده بالخطيئة والعار .

وعندما تزوجت والدتك فى ١٩٣٩ لم يكن احد منا تنقصه الخبرة او التجربة ، بل كان كلانا عاقلا رشيدا حنكته الايام ، فى الواحد والثلاثين من عمره ، ولكل منا ماضيه .

ولم تحاول اخفاء شىء من ماضيها عنى ، كذلك أنا اعترفت لها فى صراحة وصدق بكل ماوقع فى لاروشيل عام ١٩٢٨ .

وثق بأن ما ستعرفه فى السطور القادمة عن والدتك سوف يضاعف من حبك لها ، اما انا فلست ادرى يا ولدى : هل ترحمنى أو تلومنى بعد مماتى ؟

* * *

كان ذلك آخر ماسطره قلمى حتى مساء الجمعة .

وكنا قد ذهبنا البارحة « السبت » الى المسرح بدونك ، ولم نطلب منك أن ترافقنا ، لكثرة ماكنت ترفض فى المرات السابقة مفضلا ان تقضى الوقت مع بعض اصدقائك مما كان يحز فى قلب والدتك قليلا .

واليوم ـ الأحد ـ الطقس قارص البرودة على غير عادته فى نوفمبر ، الحرارة دون الصفر ، وزهرة الآنسة اوغسطين لم تظهر فى نافذتها الا فترة وجيزة جدا فى النافذة ؛ حينما استطاع شعاع هادىء من الشمس أن ينفذ متلصصا من بين السحب ليطبع قبلة خاطفة على جبين الزهرة ، قبل أن تعود الى احضان صاحبتها تلتمس الدفء والحب والحنان .

ومزاج أمك ـ كما تعلم ـ لايكون صافيا معتدلا ايام الآحاد خاصة ، لأن صديقاتها لايلبثن فى اماكنهم المعتادة فى ذلك اليوم مما يضطرها للحد من برامجها ونشاطها المعروف ، فالبيت يخلو من الخدم ، ومدام جولز الطاهية تختار الأحد من كل أسبوع عطلة لها ؛ كذلك اميلى ـ برغم علمنا الاكيد بأنها ليست حريصة على دينها ـ تتمسك بحقها القانونى وتغيب حتى الظهيرة بحجة الذهاب

للصلاة فى الكنيسة ، ولا ندرى اين تذهب هذه الفتاة فى اتم زينتها وابهى ثيابها ورائحة العطر النفاذ تنبعث من شعرها ؟ .

وتبدأ مشاكلنا منذ الصباح ان لم تكن فى الحقيقة من امسيات السبت حيث نفكر فى افضل الوسائل لقضاء اليوم ، فمن اثقل الامور على النفس ان نقضيه بين جدران البيت معا ، ثم الحدائق والشوارع مزدحمة لآخرها بالسيارات ، غاصة بالمارة والمتسكعين، أما المسارح ودور السينما فحافلة بالرواد والتلاميذ وعاملات المصانع والمتاجر ولا موضع لقدم ، والمحال التجارية مغلقة والمصالح الحكومية معطلة ، ومعظم المعارف والاصدقاء غائبون فى مزارعهم البعيدة فى الريف للصيد والقنص فى مثل هذا الوقت من العام .

وقامت والدتك الى التليفون تدير القرص مرات ومرات ، ولم تجد الا اسرة ترمبلى .

وكما تعلم . اعتذر ترمبلى عن الحضور ، لأنه الطبيب المنوب هذا الاسبوع ، واقترح ان نذهب جميعا الى شقته التى يستعملها سكنا وعيادة لمرضاه فى ميدان (ترنيه) والتى يمتلىء هواؤها برائحة اليسول والكلوروفوم ودعانا ان نمضى السهرة معه وزوجته فى لعب الورق .

ولم اشعر هذا الصباح برغبة فى نفسى للكتابة ، فأمضيت فترة الصباح غارقا فى مقعدى الوثير خلف مكتبى سابحا فى افكارى .

وفى اثناء تناولنا غداءنا ـ دق جرس التليفون فاسرعت اليه امك . وبرغم بعده عنى استطعت ان اميز فيه صوت عمك فاشيه ، وقالت أمك له :

ـ شد ما يؤسفنا أن ذلك مستحيل . سوف نخرج فى المساء أنا وآلين لزيارة بعض الأصدقاء ولعب البريدج .

وكنا نجلس معا امام أطباق المشهيات فى انتظار والدتك تنصت لى صمت .

ـ آه !. ولكن الا يمكن ان يتم ذلك غدا ؟

وتحدث طويلا : وأمك تصغى اليه .

ـ حسنا ، أجل ، بالطبع ، انتظر لحظة .. ساخبره .

ووضعت يدها على بوق المسماع وقالت :
ـ هذا « بيير » يرغب فى مقابلتنا هذا المساء لتقرير ما يلزم بخصوص المزرعة والقصر ، لانه مضطر للسفر الى لندن يوم الثلاثاء فى رحلة يطوف فيها بالجزر البريطانية لالقاء بعض المحاضرات، وقد تطول رحلته ، وقد اتصل بمحاميه لتحديد موعد الاجتماع غدا ، فأخبرته باننا مرتبطون بزيارة ، ولكنه مصر .

وهززت كتفى استخفافا ، كان مجرد التفكير فى أن ينتظر شخص ما أباه ليموت حتى يرث فيه ، يبعث فى نفسى الاشمئزاز، ومن الخير أن ننتهى من ذلك الشيء المكروه سريعا فقلت لها :
ـ ما عليك الا ان تتصلى بالسيدة ترميلى وتعتذرى لها باننا لن نستطيع الحضور لأسباب عائلية طارئة . .
واظهرت أمك استياءها بنفخة من انفها وقالت :
ـ هكذا يفعل بيير دائما ، يفاجئنا بتحديد مواعيده فى آخر لحظة !
ثم رفعت يدها عن المسماع وقالت تحدث فاشيه :
ـ بيير ؟ سنشعر بكثير من الحرج أمام أصدقائنا الذين يتوقعون حضورنا ،ولكن مادمت مصرا ماذا تقول ؟ انتظر لحظة !.
والتفتت تسألنى :
ـ أهنا ام فى شارع دى باسى ؟.
وكانت امك تفضل لو انتقلنا الى شقة عمتك،فتكون قدخرجت من بيتها على أية حال ، ومع ذلك فقد اجبتها فى حزم :
ـ بل يحضران هنا !

ولا بد انها فهمت قصدى ، ولكنها لم تجرؤ على معارضتى ؟ فانا وريث اسرة لافرنسوا ، وما عمك فاشيه الا زوج شقيقتى ، وليس من حقه ان يدس انفه ويحشر نفسه فيما لا يعنيه من امورنا، فلا اقل من أن يحضر هو الى ـ اذا أراد ـ ولسوف يضايقه ذلك بلا ريب وقد اعتاد ان تجاب اوامره وتطاع على الفور لمجرد انه اديب كبير مشهور ، يلمع نجمه فى جميع الأوساط .
واننى لأعلم انك قد تأثرت بشخصيته ، وتمتلىء نفسك زهوا وتنفخ صدرك فخرا حينما تسمع اسمه يتردد فى الصحف او

الاذاعة ، أو حين تجد صديقا لك يقرأ في شغف احـــدى روائع قصصه فتقول : هذا عمي !.

ونحن مقتربان في السن ، ولا يكبرني بأكثر من اربعة اعوام ، لكنه يبدو اصغر مني سنا ، لانه دائم الحركة جم النشاط لدرجة مذهلة ، لم يترك بابا للشهرة الا طرقه وامتد نشاطه الفكرى الى الميادين كافة . في المسرح والسينما والتليفزيون ، كما انه ينتمي لعدة نقابات ونواد في كل بلد .

حتى زوجته ــ شقيقتي آرليت ــ التي كانت في السنوات الاولى لزواجها تعاونه في كتابة مقالاته وقصصه على الآلة الكاتبة انتقلت اليها عدوى الحماس والشهرة فبدأت تكتب مقالات في شتى الموضوعات للمجلات النسائية اولا ، ثم في جميع وسائل النشر والاعلام حتى ذاع صيتها هي الاخرى ، واحتلت مركزا في الادب يضاهيه ، وكثيرا ما تراهما مدعوين الى احدى الحفلات ، كلا على انفراد ، وبدعوة خاصة باسمه .

هذا هو بيير فاشيه ــ الذي سوف أحدثك عنه فيمابعد، والذي لم يكن حينما تزوج شقيقتي آرليت الا كاتبا مغمورا في قلم المباني والاشغال المدنية ، القسم الخامس من مبنى محافظة شارنتي التي كان أبي حاكمها العام في عام ١٩٢٨ ، وكان خشن الطباع اصفر الشعر والوجه نحيل القوام ، ولم يتغير فيه شيء بعد ثمانية وعشرين عاما الا شعره الذي مضى الى غير رجعة ، لكن صلعته اكسبته صحة وشبابا حتى أمسى من العسير أن تقدر عمره !

وقالت والدتك : ابدآ في طعامكما ، سوف أتصل بآل ترمبلي فورا .

وأمك دون اية اساءة لها تشعر بالاعزاز والفخر لانها تصاهر مثل ذلك الرجل العظيم ، وكثيرا ما عبرت لي عن اسفها لان فاشيه لم يزرنا قط في الايام الاخيرة ، والحق يقال ، انه لم يطأ عتبة بيتي منذ سنوات ؛ بل كان يرسل بين الفينة والاخرى بطاقات دعوات لحضور الحفلات التي سيلقى فيها محاضرات او تعقد لتكريمه !.

وحين عادت للمائدة كانت متوترة الاعصاب ، فان السهرة التي

اعدتها قد اخفقت بذلك الموعد المفاجيء ، فمضيت اتســـاءل : يا ترى سيكون الضحية التى ستنفث فيه غضبها ، والبيت خال من الخدم ؟.

وكنت انت ـ تلك الضحية يا ولدى ، فلقد نظرت اليك فجـأة ، وهى تطبق فوطتها وقالت تسالك :

ـ ما الذى ستفعله هذا المساء ؟.

واجبتها انت فى شرود : لست ادرى !.

ـ اخارج انت ؟.

وبدت عليك الدهشة ، فهى تعلم انك نادرا ما تمضى امسيات الآحاد فى البيت .

ـ أجل ، اظن ذلك . .

ولا بأس من ان اصارحك بأن لك طريقة فى الاجابة كفيلة بأن تثير اعصاب الحليم ، ومع ذلك فانا اعلم انك لا تقصد ان تكون خشنا وانما هى حدة فى طبعـك ، وانك فى اغلب الأحيان تنسى ما ينبغى عليك من رقة وادب فى مخاطبة والديك ، وكنت متحفزا كالملاكم الذى يشعر عن ساعده للدفاع عن نفســه ، ولعلك قـــد اثارتك اسـئلتها التى تمس تحركاتك التى تعتقـــد انها تخصك وحدك .

وهتفت امك فى غضب :

ـ هل تظن ذلك ؟ ام انك واثق من نفسـك ؟.

ـ لست ادرى يا ماما ' .

ـ اذاهب انت الى السينما ؟ .

ـ ربمــــا .

ـ مع من ؟ .

ـ لا اعـــلم ! .

ـ الا تعلم مع من ستخرج بعد قليل ؟ .

وكنت التمس لك العـذر واقدر موقفك ، لانى مـررت بتلك المرحلة فى صباى ، كذلك كنت افهم سبب غضب والدتك ايضا ، لقد نسيت انك لم تعد طفلا ، وأن الفتى فى عمـرك يمقت كل نوع

من الرقابة ، وانا شخصيا حينما كنت فى مثل سنك كنت اغادر بيتى بلا هدف محدود ، وامضى افتش عن اصدقائى فى كل مكان : فى المقهى ، على ابواب السينما ، او ربما على ناصية شارع ما ؛ وعندما نتقابل نتطلق وندرع الطرقات والميادين ذهابا وايابا حتى تكل اقدامنا ونشعر بالتعب ، ثم نفترق ، وكنت اذا فشلت فى العثور على احد من رفاقى هنا او هناك اذهب أقرع ابواب دورهم حتى أجد ضالتى ، ذلك ما كنت أفعله .

اما انت فقد غمغمت وانت تنظر فى طبقك :

ـ نعم ، لست أدرى !

ـ واين كنت تذهب فى امسيات الآحاد قبل الآن ؟ .

ـ على حسب الظروف ! .

ـ أترفض أن توضح لنا أين وكيف تمضى اوقات فراغك ؟ .

وكنت المحك تزداد تحفزا وانت تنكمش حول نفسك رويدا رويدا وكانك تسلل فى قوقعة توشك أن تغلقها عليك ، وسمعتك تجيب واجما :

ـ اما قلت لك على حسب الظروف ؟

وأكاد أقسم أن الأمر لا يعدو أمرا من اثنين لا ثالث لهما : اما أن للبنات نظاما خاصا فى الافضاء بكل ما فى قلوبهن لأمهاتهن ، أو تكون امك قد نسيت أيام طفولتها ، فما زالت مصرة على اقتحام تلك القلعة المغلقة التى تحتفظ فيها بأسرارك،وكأنها تجهل انه مامن بشر فى الدنيا ـ وفى اى طور من أطوار حياته ـ لا يحتفظ فى ناحية من قلبه بأشياء عزيزة على نفسه يكره أن يطلع عليها مخلوق مهما كان شأنه !.

وبهذه المناسبة : هل تذكر حينما كنت اسالك ـ وانت فى الخامسة من عمرك ـ فى بعض الليالى ، عما فعلته فى المدرسة ذلك اليوم ؟ وكانت اجاباتك لاتختلف عما تجيب به الآن !.

ـ لا شىء !.

ـ اليس لك اصدقاء صغار يشاركونك فى اللعب مثلا ؟.

ـ بلى .

ــ من هم ؟.
ــ لا اعلم !.
ــ وما الذى تعلمته فى المدرسة اليوم ؟
ــ أشياء كثيرة .
فقد كنت ــ وفى تلك السن الصغيرة ــ تشعر بحاجتك الى الاحتفاظ بالصندوق المغلق بما يحويه من غموض وأسرار ، لاتحب ان يفضه انسان !.
ولكن ذلك لم يرض والدتك ، الم اقل لك ان اعصابها كانت فى بداية الأمر متوترة ؟.
ــ أتسمع كيف وبأى لهجة يخاطبنى ابنك يا آلين ؟
ــ اجل ، اجل !.
رباه ! وما الذى كان فى وسعى أن افعله ؟.
ــ كأنك تجيز سلوك ابنك الشائن ! فتى فى السادسة عشرة يأبى ان يصارح ابويه بما ينوى أن يفعله !
وغمغمت تقول محاولا انقاذ الموقف : انصتى لى يا ماما .
ولكن الوقت كان قد فات ، واذا بدأت العاصفة فلا قوة فى الوجود تستطيع ان تحول دون مضيها للنهاية .
ــ يجب ان تفهم أن من حقى ، بل ومن واجبى ان اعرف كل شىء عنك مادام ابوك لا يهتم بك او يبالى .
وامتقع لونك وانت تسألها :
ــ وهل ينبغى أن آخذ منك تصريحا كلما ذهبت الى السينما؟.
ــ ولم لا ؟.
ــ وفى كل مرة اخرج لاقابل صديقا او ...
ــ بكل تأكيد !.
ــ وهل تعرفين ابا من الأولاد يفعل ذلك ؟.
كان كلاكما متساويا فى العناد .
ــ اتمنى أن يفعل كل الاولاد ذلك وخاصة المهذبون منهم !.
ــ اذن كل اصدقائى غير مهذبين ؟.
ــ هذا لانك تسىء اختيارهم ، أما انت فعليك ان تفهم انه طالما انك تعيش معنا تحت سقف واحد يجب ان تكون مثال الطاعة

والأدب والخلق الحسن ، تلك واجبات مقدسة ينبغى ان تؤديها نحونا .

وارتعدت شفتك السفلى ، وكان يحدث لك مثل ذلك فى الماضى وانت بعد طفل صغير كلما شعرت برغبة شديدة للبكاء، ولكن كبرياءك منعك من ان تذرف الدموع أمامنا ، وحقا قلما رأيناك تبكى ، وأذكر اننى ضبطتك ذات يوم ـ حين كنت فى الثالثة من عمرك ـ تحبس نفسك داخل صوان ثيابك وقد انخرطت فى بكاء شديد ، وكدت اغلق الباب عليك بلا قصد ، وعندئذ صرخت فى وجهى تمنعنى بين نحيبك وانينك !.

ـ اذهب عنى ، أنا اكرهكم جميعا !.

ولما جذبت ذراعك بالرغم عنك انتزعك من مخبئك مضيت تركلنى بقدميك الصغيرتين وتعمل انيابك الخضراء فى يدى وانت فى قمة ثورتك وغضبك !. هل تذكر ذلك يا ولدى ؟.

ولكنك لم ترفس ولم تعض امك اليوم ، بل وثبت واقفا فى عنف ، ومضيت ترمق امك فى حيرة لا تعرف ماذا تقول ؟. واخيرا قلت متلعثما :

ـ فى هذا الحال من الافضل ان اخرج من هنا فورا !.

ولبثت فى مكانك برهة ، وكانك تتوقع ان يلين قلبها لتطلب منك البقاء ، لكنها لم تحرك ساكنا اذ عقلت المفاجأة لسانها وشلت تفكيرها ، وحاولت من جانبى ان اشير لك مهدئا حتى تحنى راسك الصغير للعاصفة وتنهى الموقف بالاعتذار لها ، لكنك لم تعرنى التفاتا !.

وكل ما استطعت ان تفعله هو انك غادرت قاعة الطعام ضاربا الباب خلفك فى عنف ، وانطلقت توسع الخطا بما يشبه العدو الى غرفة نومك .

وعندئذ زارت والدتك وهى تلهث فى عنف :

ـ هل رايت ؟.

ـ أجل !.

ـ طالما حذرتك ! وهانتذا قد سمعت باذنيك نتيجة افراطك فى تدليله !.

ولم اجب ، ووقفت اميلى المسكينة حائرة لا تعرف ماذا تفعل ؟ وهل تستمر فى تقديم الطعام ؟.

ـ هاتى الحساء يا اميلى .

ثم حدجتنى بانظارها وقالت :

ـ انك لم تنبس حرفا او توجه اليه لوما مكتفيا باتخاذموقف المتفرج كأنك راض عن مسلكه،وحقا أكاد اكون واثقة من انك موافق على مسلكه !.

ولم استطع ان اجيبها مؤيدا اتهامها ، وفى الوقت نفسه لم يكن فى وسعى أن اكذب فأجيبها نفيا ، فصمت !.

ـ على الاقل أرجو ان اراك تؤديه على اللهجة المخجلة التى سمعته يخاطبنى بها ، ولو كنت مكانك لبدات عقابه باصدار الأمر اليه بعدم تركه البيت اليوم كله ! .

فنهضت .

ـ الى اين ؟.

ـ ساخبره .

ـ بماذا ؟.

ـ بأنى آمره بعدم مغادرة البيت .

ـ يخيل الى انك سوف تتلطف فى الحديث معه .

ـ كلا !.

ـ بل ستفعل ذلك ، واقرا ذلك فى عينيك !

وانطلقت الى الباب ـ دون ان اجيب ـ اما الباقى فتعرفه ، الا اذا كنت قد نسيته ، ومع ذلك فربما نسيت ذلك حين تقرأ رسالتى بعد بضع سنوات .

وجدتك مستلقيا بكامل ثيابك فى عرض الفراش وقد دفنت وجهك فى الوسادة ، ولكنك لم تكن تبكى ، ومع انك شعرت بقدومى من وقع خطواتى لم تحرك ساكنا !.

ـ انصت الى يا بنى .

وحركت راسك قليلا حتى تبعد فاك عن الوسادة دون أن ترينى شيئا من وجهك .

ـ لا اريد حديثا من احد ، لا منك ولا من اى مخلوق !.

ـ ما جئت الا لاخبرك بأن تلزم البيت لا تغادره هذا المساء !.
ـ اعرف ذلك .
وساد الصمت بيننا ، وكنت اسمع تنهداتك العميقة تهز قوائم الفراش ، وانا فى دوامة من الحيرة لا اعرف هل من المناسب ان اقول لك شيئا قبل ان اخرج ، او اتركك لحالك ؟ وعندئذ سمعتك تقول فى صوت متهدج مكتوم :

ـ اطمئنوا ، لن اخرج !.
واقسم انها كانت لحظة صفاء عجيبة ، تجاوبت فيها ارواحنا واتصلت قلوبنا فى مناجاة روحية صامتة لم تحدث لنا قط من قبل . وشعرت كأن ضوءا باهرا اقوى من شمس مايو الساطعة يملأ غرفتك ! .
وقبل ان اتركك ، ربت على كتفك باصابع مرتعشة حانية ، ثم اغلقت الباب خلفى فى هدوء دون ان انطق حرفا .
ـ ماذا قال لك ؟
ـ سيظل فى الدار .
ـ اكان يبكى ؟.
وما كان بوسعى ان انطق كذبا ، فهززت راسى نفيا .
وحينما دقت الساعة الرابعة . وكنا قد امضينا وقتا طويلا مع عمتك وزوجها فى غرفة الجلوس ، انتهزت فرصة مرور امك بى ، فهمست لها : لعلك قد نسيت جان بول ؟
وبدا من نظرتها انها لم تفهم ، فلما اومات براسى تجاه النافذة حيث أوشكت الشمس ان تغيب فهمت ما اعنيه فقالت : حسنا ، ساذهب اليه .
وقلت للضيفين اللذين لم ينجبا ابناء : مسألة عائلية بسيطة.
ومضيت اصب لهما مزيدا من الشراب مبالغة فى الحفاوة .
وحين عادت والدتك كانت فى حالةطيبة، وقالت فى صوت خفيض وعلى مسمع من الجميع :

ـ سيأتى لتحية الضيوف الاعزاء تحية المساء قبل ان يخرج.
وظلت لفترة طويلة تتحاشى النظر فى عينى !.
واستأنفنا الحديث مرة اخرى بعد خروجك مع فاشيهوعمتك،

وكان دوری فی النقاش صغیرا ، فقد أحسنت أمك عرض وجهة نظری والدفاع عن مصالحی باحسن مما لو كنت فعلت بنفسی .

وعمك فاشیه ، لأن دخله یكاد یكون ضعف دخلی ، بالاضافة الی ما تربحه عمتك ایضا من الكتابة والتألیف ، یعیش هو وزوجته فی اسراف وبذخ شدیدین ، مع انه منذ عامین مضیا فحسب كانت عمتك تتردد علی مكتبی تطلب قرضا یكفی تسدید نفقات البیت حتی اول الشهر !.

ولقد فوجئت ـ یوم وفاة امی ـ بفاشیه یسألنی فی لهجة بریئة :

ـ لا اعتقد انك تفكر فی الاقامة ابدا فی هذا المكان المكروه !.

ولم أستطع ان أجیبه وقت ذاك بغیر الحقیقة ، فلقد انقطعت صلتی تقریبا بفیلا ماجالی بعد ان مضی علی وقت طویل وانا اقطن باریس بعیدا عن لوفیسینیه ، والتی فقدت كثیرا من أهمیتها بعد ان هجرت العلائات القدیمة ذات الأسماء الكبیرة قصورها بین أحضان الریف .

وكان جدك وقتئذ علی قید الحیاة .

ولكنی علمت بعد ذلك بفترة وجیزة وبحكم عملی فی شركة التأمین من مصدر اثق فیه ، انه قد تم اتصال بین فاشیه وبین احدی المؤسسات التی تقوم بأعمال المقاولات والبناء ، لجس نبضها ومعرفة الثمن الذی تعرضه فی القصر لو توسط فی عرضه للبیع .

وهو لا یعلم انی اعرف ذلك ، ولم أذكر له شیئا ـ الی الیوم ـ حینما كان یقول :

ـ كنت اتحدث مصادفة مع صدیق لی من رجال الأعمال ، وسألنی عما ننوی ان نفعله فی القصر ، واكد لی ان هذا الوقت هو انسب الاوقات للحصول علی ثمن مغر ربما لا نستطیع الحصول علیه فی وقت آخر !.

ولم اكن قد اطلعت أمك علی ذلك السر ، ومع ذلك فقد ادركت من نظراتها السریعة نحوی أنها فهمت .

والقصر بحالة مبانیه الراهنة لا یساوی شیئا ، بدون حدیقته

الواسعة التى تدخل بين أسواره الاربعة العالية . .

وقد قامت على جانبى الطريق دور حديثة مرتفعة البنـاء من ذات الطوابق الستة ، ولم يبق الا عدد قليل من القصور الخاصة التى تحكى العز التالد والرخاء القديم ، فلو اتيـح لهم ازالة قصر ماجالى لشيدوا مكانه عددا من العمارات الجميلة على احدث طراز تسكنها مئات من العلائات .

وشد ما كنت أكره من اعماقى أن اسمح ليد الهدم أن تدك ذلك البيت الذى احبه ابواى ، وشهدت فيه ذكـريات عزيزة على نفسى مما يفسر تلك النظرة المتجهمة العابسة التى كانت تبدو فى وضوح على وجهى . النظرة التى كانت تبدو على وجهك ايضا وانت تكتم ثورتك واحتجاجك على ما تتخيله من اضطهاد امك لك ! .

كنت أعرف ـ اذن ـ ما وراء ذلك الحماس الذى كان يتحدث به فاشيه وهو يبسط وجهة نظره فى اقناعنا بقبول ذلك العـرض الذى أقبل الينا يحمله مفوضا من ذلك الصديق ـ رجل الاعمال ـ فقد قيل لى : ان مؤسسة البناء قد وعدته بعدد كبير من الأسـهم او أفلح فى اتمام الصفقة ، ودفعنا على التخلى عن ارض الآباء !.

ومع ذلك فقد اغلقت فمى وتركت لوالدتك الاتفـاق على كل التفاصيل المالية وطريقة الدفع ، وكذلك انجع الوسائل لخديعـة الحكومة فى انقاص قيمة التسجيل وشهر الارث المطلوبة منا .

واتفقنا على أن نذهب لمقابلة المحامى فى الغد ، ولما كان ابى قد توفى دون أن يترك وصية من بعده فمن المعروف ان الثروة تقسم مناصفة بينى وبين شقيقتى آرليت .

وكما قلت لك : لم يكن فى ذلك اى شىء يدعو للغبطة او السرور ونحن نتقاسم كالذئاب الجائعة ما تركه لنا الأسد ، لذلك شـد ما كرهت ان أرى فاشيه يكاد يرقص فرحا وهو يخطر بيننا وكأسـه فى يده قائلا :

ـ يحسن بنا ان ننتهى ايضا من موضوع الكتب والمكتبة ، اذ لا مناص من ان نبيع كل المنقولات فى المزاد ! .

والمنقولات التى يعنى فاشيه انها سوف تباع فى المـزاد هى الاثاث والمفروشات التى أمضى ابى وامى جزءا كبيرا من حياتهمـا

فى جمعها وقضيا بينها ايامهما الاخيرة .

وفوجئت بشقيقتى آرليت تقول :

ــ ما عدا قمطر امى الصغير الذى اعتادت ان تكتب عليه ،ولقد وعدت قبل وفاتها ان تهديه لى ، ولم اشأ ان اقول لكما ذلك حينما ماتت ، اما الآن وقد . . .

وسالتنى امك : هل كنت تعلم يا آلين ان امك وهبت قمطرها الى آرليت ؟.

وكان صوتى خشنا حادا ، وانا اقول فيما يشبه الصياح : كلا !.

ــ أوه يا آلين ! ولكن حاول ان تتذكر يوم أن كنا جميعـــا فى « لاروشيل » . .

ــ كلا !.

ــ ما اضعف ذاكرتك حقـــا ! ومع ذلك فانا التمس العذر لك بسبب ندرة زياراتك لأمى فى ايامها الأخيرة .

ــ ان ما احب ان اعرفه هو ما الذى كان زوجك يريد أن يقوله بشان المكتبة ؟.

ــ آه !. مجرد اقتراح فكرت فى ان اعرضه عليك. ولكن يخيل الى ان اعصابك ليستعلى ما يرام .

ــ هانذا انصت اليك .

ــ اراغب حقا فى ان تسمعنى ؟.

ــ اجل .

ــ لقد كنت اكثر اتصالا بابيك ، واعرفه اكثر منـــك ، ففى لاروشيل خطبت شقيقتك ثم تزوجتها وبين جدرانها وضعتباكورة انتاجى وكنت انت فى ذلك الوقت ماتزال طالبا لم تحدد بعد طريق مستقبلك . تارة تقول : انك تحب الانخراط فى السلك الادارى ، وتارة اخرى تزعم انك تفضل أن تكون استاذا فى العلوم ، وفى ذلك الحين كان ابوك عاكفا على جمع كتب التاريخ والفلسفة والأدب ، وفى اثناء وجوده بلاروشيل لم يترك أى كتاب جديد وكان يتردد دائما على دور النشر ومكتبات سوق دوميناح حيث كانوا يعرفونه

كلهم ، وكما تعلم كانت القراءة وتنسيق الكتب هى تسليته الوحيدة حتى آخر أيام حياته .

وصمت فاشيه لحظة ، كان يستجمع انفاسه ليلقى قنبلته الاخيرة !.

ـ وحيث انى قد اتخذت الادب حرفة لى ويهمنى كثيرا ان احصل ...

ولا تدهش اذا علمت انى لم الق بذلك البهيم من النافذة المجاورة ، ولم الكمه أو أصفعه على قفاه ، فقد كان اقتراحه يتلخص فى أن يبادلنى ، لا ، ليس ذلك هو التعبير المناسب ، بل الاصح هو اختلاس مكتبة أبى بما تحويه من ذخائر نفيسة مقابل ان يترك لى باقى الأثاث والمنقولات !.

ويبدو أنه أساء فهم سكوتى ، فقد لبثت جالسا فى مقعدى المريح مشبكا يدى حول صدرى محملقا فى السجادة أمامى ، فاسترسل فى اغرائه ، بل فى هرائه :

ـ أؤكد لك ان من الأثاث تحفا تعتبر نادرة يتمنى الهواة شراءها بأثمان خيالية ، ولا تنس اللوحات الجميلة .

فوثبت واقفا فى حركة عنيفة تماما كما فعلت انت على مائدة الطعام ، وقلت فى حدة :

ـ كلا !.

ويبدو ان حركتى كانت مباغتة واجابتى كانت فى حدة السوط ، بحيث الجموا جميعا وتسمروا فى أماكنهم . وهم يرمقوننى فى دهشة وخوف ، بيد أنى أوليتهم ظهرى وخرجت بعد أن صفقت الباب خلفى فى شدة !.

ولم اذهب لفراشى مباشرة كما فعلت انت ، بل انفردت فى مكتبى امضغ غيظى وغضبى ، حتى اقبلت امك تقول : « لقد انصرفا » .

ثم اردفت وهى تجلس امامى فى ظلال الغرفة بعيدا عن دائرة مصباح المكتب الكهربائى :

ـ حسنا فعلت بتركك الغرفة ، فقد كان يبدو عليك الغضب الشديد وخفت ان تفقد السيطرة على نفسك !.

ـ وماذا قال ؟.

كنت اعرف من انه لابد من أن يقول شيئا ، وصمتت امك لحظة ثم اجابت :

ـ اتحب حقا ان تعرف ؟.

ـ نعم ، نعم !.

ـ قال : انه لم يتوقع قط تلك المشاعر الكاذبة التى عبرت بها عن حبك لابيك وتقديرك لذكراه ، كانك لم تتسبب فى كل تلك الكوارث التى قصمت ظهره ! معذرة يا آلين ! انت الذى طلبت ذلك !.

ـ وما الذى قررتموه اخيرا ؟

فأجابتنى وعلى شفتيها بسمة الفوز :

ـ لقد أتممت الاتفاق على ان تبقى المكتبة لك مقابل ان تترك اهم حصيلة بيع الأثاث .

ـ وقمطر أمى ؟ .

ـ اذنت لشقيقتك ان تحتفظ به ، لأنه لا يناسب نظام بيتنا ، ولكنك ستأخذ قمطر ابيك ومقعده الكبير .. والآن : هل تعلم الى اين نحن ذاهبان ؟

ـ كلا .

ـ الى احد المطاعم حيث نتناول عشاءنا على نغمات الأوركسترا.

وكانت تلك احسن وأصوب فكرة وخير ما فعلت والدتك .

ولله ما اعجبه من يوم حافل بالمفاجآت ! فما ان خرجنا من المصعد حتى قابلناك .

ـ هل تأتى معنا لتناول العشاء معا يا جان بول ؟.

ولم يطل ترددك ، فلقد جئت معنا فى الحال الى المطعم !

الفصل الثالث

لقيت امك لاول مرة فى مارس عام ١٩٣٦ واسمها وقت ذاك « اليس شافيرون » وكان كلانا فى الحادية والثلاثين يفارق شهر واحد بين عمرينا .

ولم يكن لربيع ذلك العام ـ بالنسبة لنا نحن ابناء ذلك الجيل ـ اى شبيه بين سائر فصول الاعوام التى مرت بنا ، فقد جرفتنا

سواء في الاحداث العالمية المثيرة والأزمة الدولية المستحكمة ، وترك كل منا مدرسته وقريته ومصنعه الى بقاع فى الجمهورية بعيدة عن من مسقط راسه لم يحلم قط بأن يراها .

وكنت ضمن من شملتهم التعبئة العامة قبل ذلك ببضعه شهور « فى خريف عام ١٩٣٨ » وارسلونا لحماية الحدود من الغزو المرتقب ، واعتقد الكثيرون منا انهم يودعون اهليهم الى غير عودة او لقاء ، اما انا ــ وكنت احمل رتبة الملازم فى احتياطى المدفعية فقد كلفونى السفر الى الفلاندرز ، وكان الطقس باردا والأمطار الغزيرة قد احالت كل الطرق الى برك ومستنقعات ، فكل ما كنا نلمسه او نرتديه رطب موحل حتى سيارات النقل التى تكومنا فيها كغرارات البطاطس وغرف الفنادق الخلفية الكئيبة التى كنانضطر للتوقف فيها كلما خيم علينا الظلام ، كل شيء كان يبعث على المرض !.

وكنا نقابل فى طريقنا آلافا مؤلفة من المهاجرين : عجائز وكهولا وسيدات فى مقتبل العمر معهن اطفالهن ، الجميع يحملون ما خف حمله وغلا ثمنه هربا من الموت ، يمضون لياليهم مفترشين الأوحال ملتحفين بالسماء ، هم أكوام من اللحم الآدمى المذعور المقرور ومئات الالوف من الأفواه الجائعة والبطون الفارغة يتركون طابعهم المميز فى كل قرية او مدينة او حقل يمرون به كأسراب الجراد الشره ، بما تراه اينما ادرت بصرك من اضطراب شديد فى سوق المعاملات والطعام او الاخلاق !

واخيرا وصلت مع فرقتى الحدود البلجيكية حيث انتهى بنا المطاف فى قرية هندكشوت .

وكنت ارى معالم الغضب واليأس المرير بادية على وجوه رفاقى الذين انتقلوا فجأة من حياة اللهو والترف والدعة الى العيش فى الخنادق وخلف الاسلاك الشائكة ، على نقيض ما كنت اشعر به من السعادة الطاغية ، والرضا العميق والاستسلام للنهاية السعيدة مهما حدث ، بالرغم مما احدثه تجنيدى المباغت من انقلاب خطير فى نظام حياتى .

وكان قد مضى شهران على قبولى فى وظيفة صغيرة فى شركة

التامين ، ولم اكن قد شغلت بعد تلك الغرفة الانيقة التى تعرفها والتى لاحظت ان رفوف جدرانها مكدسة بالملفات والاضابير .

وثق بأنى حينما الحقت بتلك المؤسسة الشامخة بشارع لافيت ولم اكن قد تجاوزت الحادية والعشرين لم تكن لدى ادنى فكرة عن اعمال المحاسبين الاكتواريين، ولم احلم قط بأن اكون خبيرا اكتواريا، فبعد ان حصلت على ليسانس الحقوق بدات أدرس للدكتوراه فى القانون ، ثم اذا بى ـ وفى غمضة عين ـ وبسبب تلك الحوادث المؤسفة التى وقعت فى ١٩٢٨ الفيت نفسى مضطرا للبحث عن عمل اكسب منه قوتى ويساعدنى فى الانفاق على دراساتى .

ووكلوا الى ـ بادىء الامر ـ تأدية بعض الأعمال القضائية الخفيفة تحت اشراف ذوى المران والخبرة من رجال القانون ، بالاضافة الى دراسة تدريبية فى ترتيب الاوراق فى الملفات والدوسيهات وتبويبها وتنسيقها .

وبذلت اقصى جهدى فى ان اثبت للجميع كفايتى ، وشمرت عن ساعدى وافنيت نفسى وصحتى على حساب وقتى الذى كنت ادخره للدراسة ، فحرمت نفسى جميع الراحات والعطلات والأجازات وسهرات المجتمع ، مما أثقل كاهلى ، ولكنى لم اعبأ بذلك كثيرا ، ما كنت أكاد انتهى من عملى فى شارع لافيت حتى انطلق مباشرة الى غرفتى فى شارع لابراديس فأوصدها على نفسى ، أو ربما ذهبت لحضور احدى المحاضرات الادبية او الندوات الثقافية .

وقد لاحظ ابى شدة انزوائى ونحولى المستمر فطلب من شقيقتى ان تسترعى نظرى الى ذلك فقالت لى ذات يوم :

ـ أراك تعذب نفسك وكأنك قد صممت على قتل نفسك !.

بيد ان ذلك لم يكن صحيحا تماما ، وان كان فيه شىء من الحقيقة !. لم ايئس قط بل كنت اهفو الى تطهير نفسى والتكفير عن ذنوبى وبمعنى اكثر وضوحا ، كنت أعتبر روحى مدينة بالوجود لابى ، وكان العمل الشاق المستمر وسيلتى التى اهتديت اليها للوفاء ببعض ديونى له ..

وحين تقرر ترقيتى الى منصب قانونى كبير ـ ولم اتجاوز الخامسة والعشرين ـ رفضت تلك الترقية فى عناد ، وطلبت نقلى

الى فرع المحاسبين بوظيفة كاتب بسيط لاتمرن على الآلة الالكترونية الحاسبة ، ولا تدهش يا ولدي - كنت أجد لذة عميقة تغمر مشاعرى كلما اهنت نفسى واذللتها ، ولم اكن وقتئذ ماهرا فى الرياضيات والمعادلات التى لم أعرها اهمية من قبل فى اثنـــاء انكبابى على دراساتى القانونية ، وكان على ان اهيىء نفسى لعالم الرموز والأرقام، لاكون مثل تلك الآلة الصامتة التى لا تخطىء ولا تكل من العمل ليل نهار !.

وكانت غاية راحتى وسكينة نفسى وسعادتها كلما حججت الى قصر ماجالى فى لوفيسينيه ، وسعدت بالنظر فى عينى أبى ووجهه الحبيب الى قلبى كل احد ، لأقضى معه لحظات قصارا ، وما كنت اتخلف قط عن موعدى ، على نقيض شقيقتى وزوجها اللذين كانا نادرا ما يحضران .

وهكذا .. كنت فى عام ١٩٣٨ - اعد نفسى لدخول مسابقة الدكتوراه ، عاكفا آن ذاك على اعداد المراجع والمذكرات ، بالاضافة الى أنى كنت اقوم فى مكتبى بعمل جميـــــع زملائى الذين قاموا بالاجازات الصيفية !.

وعندما بدت نذر الحرب فى الجو السياسى ، وبدات كل الدول تتأهب وتعد نفسها لذلك تلقيت امرا بارتداء الزى العســـكرى والانخراط فى سلك التدريب فورا .

كانت صدمة عنيفة قلبت مشروعات حياتى ، راسا على عقب ، فبعد عشرة اعوام من الكفاح والعمل الكبير المتواصل الذى كنت قاب قوسين او أدنى منه لاقتناص مستقبل مشرق مشرف برفـع راس عائلتى ، واحقق فيه الطموح المتوثب فى اعماقى ، واجنى فيه ثمرة تعبى اجد نفسى مرة أخرى وقد غدوت ضحية للزمن كورقـة شجر يابسة تعبث بها رياح الخريف القاسيــة ، وفى مكان ما من الاراضى المنخفضـــة حيث الوحل والقاذورات ورائحة البـارود والموت !.

وحتى هذه اللحظة استطيع أن ارى بيوت قرية هنــدكشوت ذات الطـابق الواحد ، وسيـول الامطـار الغزيرة تختلط مياهها بالأوساخ . واسمع رنين طاسات الجعة النحاسية فى الحانات ،

وضحكات الجنود السكارى ورائحة العرق مختلطة بدخان التبغ وعفن الخمور الرديئة ، كل ذلك يملأ اذنى وأنفى للآن .

وذات مساء وفى الرابعة ، كنت اقف مع بعض الزملاء متشحا بمعطف فضفاض من الجلد الواقى من الماء ، فأقبل علينا احد ضباط الجمارك مسرعا وقد احمر وجهه ولمعت عيناه ، اقبل يعدو وكأنه يطير فوق الأرض يكاد يتفجر من اللهفة والسرور ويصرخ من اعماق قلبه :

ـ ابشروا يا اولاد ، الحرب انتهت ، ستعودون جميعا الى بلادكم !.

كان يقهقه فى جنون ، كما لو اصابته لوثة ، وكان وجهه مبتلا بماء المطر والدموع !.

كانت اتفاقية ميونيخ قد وقعت وعدت حقا وبعد ايام قليلة الى القصر المرمرى فى شارع لافيت ..

ولكن لم يكتب لهذه الاتفاقية أن تعيش طويلا ، ولم يكن هناك سلام كما ظن الناس ـ بل كانت خدعة من الخدع الكبرى وضحكا على الذقون ! . وكان ذلك نصرا لتجار الحرب والسلاح . ومضت كل جبهة تشحذ أنيابها وتستعد للموقعة الفاصلة تحت ستار كاذب من السلم ، اما انا فلم اكن ابالى كثيرا ، بل لا تدهش اذا صارحتك بأنى كنت أرنو الى الموت والتضحية بحياتى فى سبيل الدفاع عن الوطن ، حتى اكفر عن خطيئتى وآثامى ، ولكنى ما كنت اعود حتى التهبت كليتاى ولزمت الفراش فى غرفتى بشارع اوغسطين طوال ديسمبر .. وبذل طبيبى جهدا كبيرا فى اقناعى بضرورة السفر الى « اوفيسينيه » لاكون تحت رعاية والدى فترة العلاج ، بيد انى ضربت بنصيحته عرض الحائط ، وبقيت فى مكانى أشغل وقتى فى قراءة « مذكرات ساللى » كما اعدت قراءة مذكرات الكاردينال ريتيز للمرة الثانية ، وكان ابى قد اهداها لى من قبل .

وحين عدت لاستأنف عملى فى يناير ، كنت ممتقع الوجه ضعيف الاعصاب غير متزن الخطوات ، ومع ذلك فقد صممت على مباشرة واجباتى مما هال زملائى وروعهم ، واصروا جميعـــا على ضرورة قيامى باجازة مرضية .

واذ كنت أحمل في نفسي ذكريات جميلة منذ الطفـــولة عن مقاطعة جراسي بساحل الرفييرا ـ حيث كان ابي نائبا لحاكمها ، فقد اشتد بي الحنين للعودة الى زيارتها ، فحملت حقيبة ثيابي وبها بعض الكتب التي تبحث في « تقدير الخطر بالنسبة لشركات التأمين » وانطلقت بمفردي الى مدينة كان ثم نزلت في فنـــدق سوكيه ، وهو مكان جميل يشرف على المدينة ويطل على البحر ، تحيط به اسوار عالية من اشجار السنط والكافور .

وكنت اقضي اكثر اوقاتي جالسا الى نافذة غرفتي اتأمل القوارب البخارية ذات الالوان الزاهية تروح وتغدو في الميناء الكبير ، واتمعن في مياه البحر الزرقاء واسطح البيوت القديمة المكسوة بالقرميد الاحمر حين تنعكس عليها اشعة الشمس الساطعة ، واتطلع في شغف الى شرفات العمارات الشامخة القريبة وما يدور في ظلال غرفها من الداخل من مظاهر الحياة العائلية السعيدة .

وشعرت في يوم شديد الحرارة ، شمسه ساطعة ملتهبة ، باغراء شديد نحو البحر فانطلقت للاستحمام ، وكان ذلك خطأ كبيرا مني اذ اصابتني حمى شديدة في اليوم التالي ولم اشعر بشيء ونقلتني سيارة الاسعاف الى مصحة ذات حديقة واسعة غناء .

وهناك ، قابلت الممرضة اليس شافيرون التي اصبحت فيما بعد زوجة لي ووالدتك !.

واني حينما اصف لك تلك الحقبة من حياتي تفصيلا انما اقصد بذلك أن تتبين عن جلاء ويقين ، ظروفي وقت ذاك ، كنت في حالة نفسية لا احسد عليها ، وحالتي الصحية في غاية السوء بين الحياة والموت ، كذلك كان العالم كله في مثل حالتي : شيخ مريض تنهيه الخلافات والأمراض والاحقاد ، يجلس على برميل من البارود ويشهد فترة سلام قلق مهدد بالحرب والفناء ، ويحسن ايضا أن اعترف لك باني لم اكن خلال الاعوام العشرة السابقة قد تعلقت عاطفيا باية انثى لاسباب سوف تعرفها فيما بعد ..

ولا اكاد اذكر الا القليل النادر جدا عن ايامي الاولى في تلك المصحة ، سوى اني كنت في حالة هذيان دائم ، اشهد خيـــالات كثيرة واحلم احلاما مزعجة ، كنت أعاني مرضا خطيرا علمت فيما بعد

انه التهاب رئوى حاد كاد يوردنى حتفى ولم يكن قد تم اكتشـاف البنسلين او مركباته فى ذلك الحين !.

وكانت بالمصحة ممرضات ذوات كفاية يتناوبن الخدمة ليـلا ونهارا ، ويقمن بواجباتهن خير قيام .

بيد أنى كنت لا أميل الى رئيستهن التى كانت تتحدث بلكنة روسية ، وأظن انها كانت احدى المهاجرات الروسيات . وايضا لتكلفها الظاهر فى ملاطفتها للمرضى ، أما الثانية وكانت من بنات ذلك الاقليم ، وهى عانس قصيرة الساقين تنبعث منها رائحة زيت الخروع ، وفى الخمسين من عمرها فكنت انفر منها بالفريزة برغم انها كانت تحدثنى كما كانت تفعل جدتى ، وتبالغ فى ترفقها بى وهى تضعنى فى فراشى وكأنى « فازة » ثمينة من الكريستال !.

اما امك فكانت اجملهن وجها وأرشقهن قواما واكثرهن جاذبية، كما تراها اليوم ، وكما ستراها الى ما شاء الله ، لم ولن تؤثر فيها السنون والأعوام ما عدا خفة فى الحركة كانت تمتـاز بها وقت ذاك ، لم يكن مبعثها رعونة أو طيشا ، بل اكبر الظن ، حيوية متدفقة مصحوبة بكثير من الاغراء والرغبة فى الاستقرار العائلى الذى كان ينقصها فى ذلك الحين !

أو لعلها كانت هى الأخرى تعانى ما كنت أعانيـه ، وتدرك أنا نعيش فترة ترقب وانتظار صدور الحكم بالاعـدام على الدنيـا بأسرها !.

رأيتها ـ اذن ـ لأول مرة خيـالا أبيض بين ضـباب الحمى ، وسمعت صوتها قبل ان اميز لها صورة واضحة المعالم .

كذلك هى ، حينما وقـع بصرها على لم أكن الا مجموعـة من العظام ، شبحا هزيلا يرتعش من راسه حتى اخمص قدميـه من شدة الحمى ويغطى جسمه العرق الغزير ، مجرد بائس ساقته المقادير مثل باقى المرضى الى تلك المصحة ، اذا امتد بى حبل الحياة وعشت ، فمرحبا والف سلامة ، وان مت قيدت اسمى فى سـجل الوفيات ، وابدلت اغطية فراشى لمريض يأتى مكانى فى الغـد ، ولكنها ـ برغم ذلك ـ وهو ما عجبت له فيما بعد ـ كانت تخصنى بالكثير من العناية والرعاية حتى قبل ان تتوثق صلاتنا او تعرف عنى شيئا !.

كذلك احسست بدورى ـ كما ذكرت لك ـ بميل غريب نحوها، لم أشعر به تجاه زميلاتها الباقيات .

وارجو الا تتسرع وتسىء الظن فتحسب ذلك حبا ، فنحن لم نتبادل الحب قط فى يوم ما ؛ بل كانت صداقة توطدت اواصرها شبيهة بذلك النوع الذى ينمو بين جنديين فى عمر متقارب يعيشان فى خندق واحد بالخطوط الامامية بميدان القتال ويتوقعان الموت فى اية لحظة . الامر الذى يضطرهما ـ بحكم الظروف ـ الى رفع كل تكليف بينهما . .

وما زلت اذكر اول عبارة سمعتها منها :

ـ لقد سمح لك الطبيب اليوم بقليل من حساء الخضراوات ، وكعكة ثم بعض المربى : فهل تشعر بالجوع ؟.

ولا اخفى عنك انه قد ضايقنى منها حيويتها الدافقة ؛ فكانت لا تستقر فى مكان ؛ تنجز عشرات الأشياء فى وقت واحد !.

واستطردت تقول وهى ترمقنى بعينيها الضاحكتين وانا اتناول الطعام :

ـ الك اصدقاء او اقارب هنا فى الرفييرا ؟.

ـ لا اعرف احدا بالمرة .

ـ وفى باريس ؟ الست مقيما بباريس ؟

ـ بلى ومع ذلك فلا احد لى هناك ؛ ليس لى الا ابواى فى لوفيسينه ! .

ـ اتعيش معهما ؟

فهززت رأسى نفيا .

ـ سيتاح لك غدا او بعد غد ان تكتب لهما شيئا .

ـ أشكرك .

ـ ولم اعرف شيئا عن حياتها الا بعد فترة من الوقت ، فقد اعتادت ان تحضر لغرفتى وتجلس معى كلما سنحت لها فرصة فراغ ، وتترك الباب مفتوحا حتى تستطيع ان تسمع صوت الجرس الخافت الذى جعلوه خافتا حتى لا يزعج اعصاب المرضى او يوقظ النائمين ؛ وكان ذلك الجرس يعمل باستمرار ، ودائما يقطع علينا حديثنا ، فتهب واقفة وهى تقول ضاحكة :

ـ انهم لا يستطيعون صبرا ، يخيل اليك انهم فى آخر انفاسهم! او تقول مثلا : هل رايت ؟ انه رقم ١٧ يطلب الحقنة !

واستطعت ـ فى خلال ثلاثة ايام ـ ان احفظ اسماء كل مرضى الطابق الذى اقيم فيه ، من الجنسين دون حاجة لان اراهم، فقد كانت تحدثنى دواما عن كل فرد منهم وعن مرضه وطباعه .

وفوجئت بوفاة احدهم فى احدى الليالى ، وكان مريضا بمرض عياء ، ولم أستطع النوم بسبب الخطوات المتلصصة والهمس الدائر فى الممر ونداءات التليفون ، ثم حركات عجلات النقالة ، وكنت قد لمحت القس وهو يمر ببابى فى الليلة السابقة يوسع الخطا وكأنه فى عجلة من امره .

وكانت اليس شافيرون ممرضة السهرة ذلك المساء ، فلما اقبلت لزيارتى فى السابعة صباحا ، كان وجهها نضرا متألقا ، وابتسامتها رائعة ككل صباح !

ـ هل سمعت شيئا ؟

ـ اجل .

ـ انه سعيد الحظ فقد أراحه الموت من الآمه التى تفتت الاكباد ، ولا يغيظنى الا جحود اولاده الذين لم يكلفوا أنفسهم عناء زيارته الا مرة واحدة منذ ثلاثة اسابيع ! ذلك برغم ان احدى بناته متزوجة وتقيم فى نيس ، وابنه يفتتح جراجا للسيارات فى جراسى نفسها ، اننى اعرف كل شيء عنه ، فهو لاجيء ايطالى جاء لهذه المدينة جائعا مفلسا وبدأ حياته فى أعمال البناء ، اما الآن فهو تارك لهم ثروة ضخمة يسيل لها اللعاب ! وسوف تراهم حينما يسمعون بوفاته يهرعون نحو جثته يتباكون ويندبونه بالموسيقى واعذب الالحان !

ورمقتنى بعينيها الباسمتين ثم اضافت ضاحكة :

ـ هل ازعجتك رؤية الموت ؟ .

ـ كلا .

ـ انه صدمة لذوى الاعصاب الضعيفة من المرضى ، مما يجعلنا

مضطرين الى التزام الهدوء وعدم احداث اى صوت او حركة ما امكننا .

وسألتها : واين هو الآن ؟

ـ فى الطابق السفلى لدينا غرفة خاصة بالموتى فى البدروم .

ـ هل تعملين فى التمريض منذ أمد طويل ؟

ـ حصلت على الدبلوم منذ اعوام ثمانية ، ولكنى الآن فى مثل عمرك !

ـ وكيف حدست عمرى ؟

ـ مكتوب على تذكرة سريرك ، انت تكبرنى بشهر وثلاثة ايام !.

وكان طقس الظهيرة ساخنا ، فتركت نافذة غرفتى مفتوحة ، واستطعت أن ارى من خلالها قمم أشجار الكافور العالية وزرقة السماء الصافية ، ولم اكن قادرا على القراءة او تادية اى عمل سوى انتظار زيارة الطبيب مرتين فى اليوم بعد تنظيف الغرفة ، وتنظيفى انا ايضا ، وترقبى مواعيد الطعام بفروغ الصبر .

ولعل فترة « تواليت الصباح » كانت احلك لحظات حياتى محنة حقيقية اجتاز فيها حلقات من الخزى والخجل العميق ، وما ان تنتهى الممرضة من ان تستبدل بملابسى اخرى جميلة الرائحة ، بعد ان تغسل جسمى بالماء الدافىء والصابون ، وبعض الكولونيا ، ثم تضعنى وسط الاغطية الجافة الجديدة ، حتى أتنهد فى ارتياح شديد ، واشعر كانى قد ولدت من جديد !

وكنت قد ارسلت بطاقة لابى وامى أصف فيها سرورى من رحلتى الجميلة ، دون أن أشير لمرضى ، وكانت اليس شافيرون تذهب الى فندقى وتحمل لى الخطابات التى ترد باسمى الى المصحة .

ولم يدر بخلد احد منا اننا سنرتبط معا بذلك الرباط الأبدى ، بل اكاد اقسم ان احدنا لم يكن ينظر للآخر الا كما ينظر الانسان الى رفيق له فى السفر فى باخرة او قطار او فى حجرة انتظار !

ولم اكن قد عرفت من امرها شيئا بعد ، بل حتى حين عرفت

لم يكن ذلك دفعة واحدة ، بل كان قليـلاً منه فى مدينة « كان » بالمصحة ، ثم خلال ايام نقاهتى ، واخيرا خلال فترة زواجنا .

كان ابو والدتك نورمانديا ممن يحملون اسم غليوم ، ويزعم انه ينحدر من سلالة وليم الفاتح ، ولد فى فيكاسب بشارع ديثرئيات ، من اسرة متوسطة الحال حيث كان ابوه يعمل حارسا لعنابر تخزين الخمور .

وكان رجلا ذكيا منذ طفولته تفوق على اقرانه مما شجعه بفضل المساعدات المادية التى قدمها اليه اصحاب المصانع على ان يواصل دراساته ، وكان النجاح حليفه من مدرسة لاخرى حتى حصل على البكالوريوس فى التاريخ ، واشتغل مدرسا فى الليسيه .

ولم تولد امك فى نيس ، بل فى بورجى ، حيث عمل ابوها فى بدء حياته ، وحين كانت فى الرابعة من عمرها ، نقلوه الى الرفييرا — ولا تضحك اذا ذكرت لك ان ابى — فى تلك الفترة بالذات ، كان حاكما عاما لمقاطعة لاروشيل .

وعندما ضاهينا الاوقات معا : اكتشـفنا اننا كنـا نعيش فى الرفييرا — وكلانا بين الخامسة والسادسة — لايبعد احدنا عن الآخر باكثر من اميال قليلة : هى فى نيس ، وانا فى جراسى . وقد مكثت هى اما نحن فقد رحلنا .

اتذكر يوم ان كنت معنا فى رحلة بالسيارة ومررنا ببيت احمر قديم عريض الوجهة متعدد الغرف والطوابق ، وتبادلت انا وامك النظرات ؟ ذلك هو بيتها الذى ولدت فيه ، وما زالت جدتك به وقد امست عجوزا دردبيسا ، وكانت قد اشارت لى عليه فى مرة سابقة انه احد البيوت ذات الطراز الايطالى القديم التى تزخر بها الاحياء القديمة فى المدينة فيما بين ميدان مسينا والميناء الكبير ، واذا مررت بتلك البيوت فى الظهيرة حسبتها من نوافذها المغلقة مهجورة خالية من الناس ، وما ان يحل المسـاء حتى تلفظ ما فى بطونها وتطن كل غرفه بالآدميين كخلايا النحل ، ثم ينتشروا على اعتـاب البيوت ويجلسـوا فى اركان الشوارع يزحمون ارصفتها حتى ساعات متأخرة من الليل !.

وهذه الجدة : هل تذكرها ، وقد زارتنا منذ عدة سنوات قبل أن يقعدها المرض ؟

كانت فى شبابها انموذجا رائعا فى الجمال تحترف بيع السمك فوق عربة يد تدفعها فى ذلك الحى الشعبى من مدينة فيكامب ، فهل تراك قد افزعتك هذه الحقيقة التى قد تضيء لك الطريق فى فهم والدتك ؟.

كانت جدتك تكافح فى سبيل العيش ، بعد ان تلقت شذرات من العلم لا تسمن ولا تغنى من جوع ، ثم اصبحت ذات يوم زوجة للمدرس شافيرون الذى ينحدر من غليوم سليل الامبراطور وليم الفاتح الذى دوخ اوربا !

وكانت الجيرة كلها تحسدها على ذلك ، وقد اكتسب زوجها مهابة وجلالا ، يرمقونه بكثير من الاحترام وهم يستوقفونه فى الطريق ليقرأ لاحدهم خطابا او يستكتبه آخر رسالة له ، أو ينتدبوه لاجراء مصالحة أو فض نزاع او مشاجرة ..

ولم يسعدنى الحظ برؤية مسيو شافيرون قط ، اذ كان قد فاجأته نوبة قلبية قضت عليه قبل ان اذهب الى مدينة « كان » ببضعة أعوام ، لكنى سمعت الثناء العاطر عليه ممن عرفوا فضله وعلمه ، كذلك شاهدت مجموعة من صوره الشمسية ، كان يبدو فيها متجهما عابس الوجه ينظر من تحت انفه فى كبرياء وانفة واستعلاء .

ويخيل الى انه لم يكن موفقا فى زيجته من بائعة السمك الفاتنة وخاصة بعد ان صار ابا لأربعة اطفال ، كانت أمك صغراهن ، وتضاعفت نفقاته ولم يكن له دخل سوى راتبه المحدود ، لا يكفى الحياة فى المستوى اللائق بمركزه امام تلامذته ، مع المحافظة على مكانة الاسرة التى انحدر منها ، وبقينا ، كان جيرانه الفقراء الذين ينامون على الطوى اسعد منه حالا مع صخبهم المتواصل ومشاجراتهم التى لا تنتهى ، لانهم اعتادوا ذلك النمط من الحياة المتقشفة لا يشكون ولا يتبرمون بل كانوا راضين قانعين !

وكل واحد من ابنائه الاربعة قد شق طريقا يختلف عن الآخر : اكبرهم « اميل » انخرط فى البحرية وهو فى السابعة

عشرة ، ثم تركها بعد خمسة اعوام الى مدغشقر حيث انقطعت خطاباته عنا ، ولم نسمع عنه الا ما حمله بعض الموظفين العائدين من انه قد تزوج احدى بنات الجزيرة وأنجب منها ثمانية أو عشرة من الأولاد .

وامك لم تذكره قط امامك ، حتى لا تحتذى به مثالا .

اما جان – الابنة الكبرى – فقد تزوجت بدالا ايطاليا كان يفتتح محلا فى « غتيبى » ثم أفلس فأغلق أبوابه ورحل معها الى الجزائر ، وهناك تشاجرا فحصلت على الطلاق منه ثم تزوجت انجليزيا وما زالت تقيم معه فى ديفونشير

وتليها – لويزا – التى دخلت الدير .

وكانت أمك قد أنهت دراستها واجتازت امتحان الكفاءة « البوشو » والتحقت وهى فى السابعة عشرة عاملة على الآلة الكاتبة فى احدى وكالات التصدير ، ولكنها قررت فجأة وبعد عدة شهور أن تغير مجرى حياتها وتدرس التمريض ، واذ هى التى بقيت دون اخواتها فى الدار ، فقد وجدت من والديها ارتياحا وترحيبا وتشجيعا على مواصلة الدرس والتحصيل .

ولست ادرى لماذا تركت فجأة عملها الكتابى المريح ؟ ولكنى كلما سألتها عن ذلك احمر وجهها وقالت فى ضيق :

– كنت وقتئذ أوزة حمقاء ، رأسى مشحون بالأحلام السخيفة ، دعنا لا نذكر ذلك الماضى !

مما يجعلنى اوقن ان ثمة اشياء خطيرة قد حدثت لها ، وهى لا تحب أن تستعيد ذكرياتها .

وعندما حصلت على دبلوم التمريض رفضت أن تعمل فى نيس ، وذهبت لتعمل فى مستشفى باريس ومعها توصية من بعض الاصدقاء الى الأستاذ الكبير (ب) اعظم اطباء القلب ، والذى لا تزال كتبه تدرس فى جميع انحاء العالم ، وتتحدث عنه الدنيا كأعجوبة الجيل برغم حداثة سنه .

وكانت أمك فى الثانية والعشرين أكثر جمالا وشبابا مما هى الآن ، وتتحدث بلكنة اهل الجنوب التى تشنف آذان الناس فى باريس ، وكان هو فى السادسة والاربعين – فى مثل عمرى الآن .

وهنا اتوقف قليلا لارجوك الا تتسرع فى اصدار حكمك عليه حتى تصل انت لهذه السن ، فاذا حسبت ان الانسان يستطيع ان يسيطر على قلبه فى الاربعين ، فانت واهم .

ومن اليسير ان تحدس ما حدث ، وسوف تستطيع ان تفهمه بنفسك ذات يوم ، فمما لا ريب فيه ان الأستاذ (ب) قد اغرم بها ، ولولا مذهبه الكاثوليكى ووفاء قديم لزوجته ـ لسارع الى طلاقها والزواج من (اليس شافيرون) ممرضته الحسناء .

اترى ؟ هل كانت من جانبها تحبه ؟ لست واثقا من ذلك ، ولكن من المؤكد انها كانت تحمل له اعجابا عميقا ، وتتفانى فى الوفاء والاخلاص الشديد له . .

وامضت فى المستشفى عامين كاملين ، ولا يهمنى ان اناقش كيف ومتى كانا يجتمعان فى ذلك الجو الملىء بالطلبة والمرضى والأطباء والزوار وغيرهم ؟.

ولعل مصادفات الزمن هى التى لعبت دورها الكبير فيما حدث بعد ذلك .

فقد كان للأستاذ الكبير طبيبة مساعدة تعاونه فى ابحاثه داخل معمله الخاص فى داره ، سيدة مطلقة فى الخامسة والثلاثين لم يشك مخلوق فى انها لشدة تفانيها واخلاصها وحبها لعملها ،تترك أستاذها حتى تموت ، لكنها التقت بأرمل ثرى كان يتردد على الأستاذ للاستشارة والعلاج فاعجب بها ، ثم تزوجها .

ولم يكن ثمة مناص من أن تحل امك محلها ، وانتقلت للاقامة بشارع (ميرونسيل) حيث بيت الاستاذ وزوجته التى كانت مريضة بمرض غير قابل للشفاء ، لم يقدر لها أكثر الأطباء تفاؤلا ازيد من خمسة أعوام !

ولو مضت الحوادث فى مجراها الطبيعى لكانت امك هى السيدة حرم الاستاذ (ب) حتى هذه اللحظة !

كان ذلك امرا مسلما به معروفا للعامة قبل الخاصة ، كذلك الجميع اصدقاء الاستاذ وزملائه ومعارفه ، وأيضا لزوجته التى لم يكن يشغل بالها سوى صحتها وايامها المعدودات !

ولما كانت ظروف الاستاذ تضطره اغلب الايام السهر فى معمله طول الليل فقد اعد لمساعدته غرفة نوم فى المبنى نفسه حتى تكون قريبة منه توفر له مايطلبه وتلبى نداءه فى اية لحظة ، وبمضى الايام استولت امك على مقاليد البيت وامتلكت جميع اعماله وشئونه ، وأصبحت سيدته الأولى .

وشهدت بداية عام ١٩٣٨ امك وهى فى الثلاثين من عمرها ؛ مطمئنة تماما الى مستقبلها الذى أرست قوائمه وثبتت دعائمه ثمانية اعوام كاملة بالعرق والدموع ، واذا بالأقدار تضحك منها ساخرة ، وتقبل احدى السيارات العامة مسرعة فتصدم استاذها وهو خارج من باب المستشفى الكبير فتقتله على الفور !

ولست ادرى مافعلته امك عندما بلغها ذلك النبأ ، وكل ما أعلمه انها سارعت فحزمت حقائبها فى التو والساعة وغادرت المدينة كلها الى غير عودة ، ودون ان تلقى نظرة على جثة الحبيب قبل ان يواروها بالتراب !

ولا بأس من أن تعلم ان مدام (ب) قد عاشت ست سنوات بعد ذلك ، وآلت ثروة الاستاذ الضخمة الى اقارب أرملته « وتقدرون فتضحك الأقدار ! »

* * *

وفى اللحظة التى كنت اخوض فيها الوحل فى طريقى الى الفلاندرز ، كانت اليس شافيرون تحط رحالها فى مدينة كان ، حيث كانت هناك وظيفة شاغرة تنتظرها فى المصحة .

ولم يكن فى صوتها وهى تقص على تلك المرحلة الحاسمة من حياتها ما ينم على اى اسف او حزن ، وكنت وقتئذ اجلس قريبا من النافذة حيث كانت تقف مستندة الى افريزها بثوبها الابيض ؛ وقد عقدت ذراعيها فوق صدرها ، واقلتت من شعرها بعض خصلات ناعمة خفيفة كان النسيم الهادىء يداعبها فى رقة فوق صفحة جبينها الوضاء .

كان صوتها خاليا من اى اثر للانفعال او التاثر ، كما لو كانت تقرا لى قصة امراة اخرى فى كتاب بين يديها ، وهى تنظر الى

الحديقة تحتها فى شرود حيث كنت أسمع خطوات بعض المرضى يسيرون فوق حصى الممشى .

وفى اللحظة التى ختمت فيها قصتها سمعنا نزيلة الغرفة ١٤ تدق الجرس ، وكانت قد حضرت فى الليلة السابقة لاجراء جراحة عاجلة ، فابتسمت اليس شافيرون وهى تقول وكأنها قد استيقظت لتوها من حلم جميل :

ـ دنيا عجيبة ! اليست كذلك ؟

وبعد ذلك ، بعد ذلك بأيام كثيرة جدا ، كنت استرجع فى ذاكرتى تلك القصة بكل دقائقها وتفصيلاتها ، وجعلت ادبره واقلبها فى راسى مرات ومرات ، ولم اشعر بأية غيرة او مرارة فى حلقى ؟ فاذا كانت قد ارتكبت خطأ فكلنا قد اخطأنا ، وانا بنفسى قد اخطأت ذات يوم وكفى المرء نبلا ان تعد معايبه !

ولقد حدثتها انا أيضا بما وقع منى ، وهو ماسأسرده عليك بعد قليل ، فابدت عطفا شديدا على قضيتى ، ومن سمع مصيبة اخيه هانت عليه مصيبته !

اذن ، كان كل منا يفهم صاحبه تماما ، وكلانا ناضج رشيد ؟ وحتى لو كنا نؤمن بالحب ، فكنا نعلم أن ماييننا لايمكن ان يكون حبا ، بل اصح وصف له انه تفاهم ارقع درجة من الصداقة العابرة .

ومع ذلك فمن الثابت انه لم يخطر ببالنا فكرة الزواج قط وقت ذاك .

ولا شك اننا كنا نفكر معا . على نسق واحد

فليس منا من هو مرتبط بخطبة او زواج . والعالم أمامنا يرقص على برميل بارود ، لايعلم احد متى ينفجر ، وان كانت الدنيا كلها تؤمن بأن الانفجار محقق واكيد وقريب ! وعندئذ لن يبقى ولن يذر ! واذا ماافترقنا ، فهو فراق لا لقاء بعده ، فانا فى طريقى لوحدتى فى الجبهة الشمالية حيث انا ملاق لامحالة حتفى ، واذن فمهما يحدث بعد ذلك فهو قليل الاهمية عديم الاثر !

ولعل ظروف مرضى وعجزى وقيامها عنى بحكم طبيعة عملها ؟ بادق الاشياء واشد الخدمات حرجا لى ، قد سهل من تفاهمنا ، وعجل فى تقاربنا ، وما كنت اشعر فيه بالخزى والخجل ، صار امرا عاديا وطبيعيا دون أى تصنع او تمثيل .

وعلى فكرة ، كل تلك الاحداث لم تستغرق وقتا طويلا ، بل حدثت فى وقت وجيز جدا ، اذ ان مدة اقامتى فى المصحة لم تتجاوز ثلاثة اسابيع .

ومع ذلك فقد كان يخيل الى كانى اقمت فيها جزءا كبيرا من حياتى لكثرة الذكريات التى ثبتت صورهـا فى قلبى ، كل ركن ومقعد ونافذة وصوت فى المستشفى . حتى رائحة الكافور التى كانت تختلط برائحة الجعة .

وكنت اتصور احد الباعة هنالك بين تلك الطرق الضيقة التى تنحدر من التل الذى كانت تشرف عليه مصحتنا فقد كنت اسمع طوال الليل اصوات البراميل وهى تتدحرج بعضها ممتلىء وبعضها فارغ ، وصممت على ان اتبين حقيقة الأمر عندما اغادر المكان .. ولكنى نسيت ذلك تماما مثلما نسيت أن اذهب لاتفرج بمدرسة البنات القريبة منا والتى كانت تنبعث منها تلك الضجة الحبيبة الى النفس والصيحات الرنانة المرحة مرتين كل يوم فى أوقات الفسح بانتظام .

وكان أحد المرضى . وهو كهل يتوكأ على عكاز ويرتدى منامة فوقها روب من الحرير ذو ياقة زرقاء أعارتها اياه ادارة المصحة اعتاد كلما مر فى المشى أن يتمهل امام باب غرفتى ، فاذا كان الباب مواربا ، دفعه بطرف عصـاه حتى ينفتح على مصراعيه ؛ وعندئذ يقف على العتبة برهة طويلة ينظر الى واجما صامتا ، ثم يهز راسه وقد بدا عليه أسف عميق وينصرف !

وكنت احسبه بادىء الأمر مخبولا به مس من الجنون ، او على اقل تقدير لايقوى على النطق .. ثم تبين لى بعد ان اوشكت مدة اقامتى أن تنتهى انه فى كامل عقله كما أنه صاحب صوت موسيقى

عظيم ، ويعمل بالاوبرا « تينور » وكان يقيم منذ ثمانية شهور لاجراء عدة جراحات متتالية ، ولم اسمع صوته الا حين كنت احزم حقائبى لقد قال لى وهو يقف بباب غرفتى بصوته العريض :

ــ اتمنى لك حظا سعيدا ايها الشاب !

ثم هز راسه بطريقته الخاصة ، ومضى ! .

وكانت امك تستاجر شقة مفروشة تتكون من غرفة للنوم واخرى للجلوس ملحق بها مطبخ وحمام فى الطابق الاول فى منزل على قمة ميدان « القومندان ماريا » وفى مواجهة احدى الصيدليات .

وكتبت لابوى بضعة سطور مشيرا لمرضى مهونا الامر مااستطعت حتى لا اسبب لهما قلقا او انزعاجا ، كما ارسلت خطابا لشركة التأمين التى سمحت لى باجازة اضافية ونصحتنى بأن اعتنى بصحتى ، وعدت الى غرفتى بفندق « سوكيه » .

وكانت الزهور قد اينعت وازدانت بها الحديقة التى كانت تبدو كبساط سندسى اخضر جميل ، واتاح لنا الجو الدافىء الجميل ان نجلس معا فى الهواء الطلق لتناول الغداء ، اذ كان عيد الفصح على الابواب ، وبدات القرية تمتلىء بوفود الزائرين ويزدحم بهم مشرب الفندق وشرفته .

ومضى شهر كامل ، ثلاثون يوما دون ان اقبل والدتك او يخطر ذلك ببالى ، وكنا نتقابل فى اوقات فراغها ونذهب للسينما وهو امر لم افعله مع امراة ، منذ كنت فى التاسعة عشرة او ننطلق معا الى جزيرة ليرين فنمشى جنبا الى جنب بين اطلال قلعتها القديمة وتحت ظلال اشجار السنديان والزيزفون ، ثم نجلس فى النهاية فوق صخرة عالية نتامل امواج البحر وهى تتعانق فى سرور وجذل .

وربما خطرت الفكرة ببالى فعلا ، ولكنى لم آخذها ماخذ الجد ؟ وكنت اقول لنفسى : ولم لا ؟

ومما تطيب له نفسى ان اشعر الآن انها كانت تفكر فى الشىء نفسه . وانما بطريقة اخرى .

انها لا تموت فى حبا ، ذلك أمر مفروغ منه — ولكنها تالف الخروج والجلوس معى دليلا على شعورها نحوى بالارتياح والود ؟ وتضحى بأوقات راحاتها برغم كثرة مشاغلها وعملها المضنى فى سبيل قضائها معى ، وكنا نجد فى ذلك تسلية وتسرية عن النفس وسعادة لاتوصف بلقائنا .

وكانت ظروفها عسيرة ومعقدة .

فوالدها الذى كان ابوه عاملا بسيطا ، كافح ليطفو على السطح ، وأمسى فى النهاية مدرسا محترما ترمقه العيون ، كان يرجو أن يحذو وحيده حذوه ويصير طبيبا او محاميا ، لكن آماله قد خابت فيه « اقصد ذلك الفتى الذى هرب الى مدغشقر ولم يصب من العلم شيئا » كذلك شقيقتاها : لا شك فى انهما بذلا اكثر ماتستطيعان فى سبيل الارتقاء لكنهما فشلتا ماعدا زوجة البقال التى لم ترض بحياة الفقر ، فطلقت ثم تزوجت الانجليزى صاحب مزرعة فى ديفونشير .

وهى لم ترض ان تظل طول حياتها اسيرة مكتب ضيق تعمل على الآلة الكاتبة ، وقد ورثت عن أبيها الطموح ، فانطلقت بخطوات مريعة نحو تحقيق اكبر امانى العمر وأحلامه . واوشكت أن تكون زوجة للأستاذ الكبير تتسلط عليها الاضواء ، وتنحنى لها الهامات تقبل اناملها ، ولكن الزمن الساخر شاء ان يلعب معها لعبة الثعبان والسلم ، فاذا بها تنحدر هابطة فى عنف وقسوة . درجات كثيرة الى القاع لتبدأ الكفاح من جديد !

وحينما لقيتنى لا شك أنها وضعتنى فى ميزان دقيق .

فانا — وان لم اكن الا خبيرا اكتواريا — مركزى محترم واحمل شهادة عالية ، وامامى مستقبل باسم يبشر بالرقى العاجل والمنصب الرياسى الكبير .

وعلى اية حال ، أستطيع ان أؤكد لك انها حتى ابريل عام ١٩٣٩ لم تكن تفكر فى اى شىء من ذلك .

وذات يوم — فى ابريل عام ١٩٣٩ — على حين كنا ناكل أطباقا شهية من السمك المدخن ، فى حديقة فندق سوكيه ، وكان على

المائدة المجاورة عروسان تتشابك أيديهما فى ود وصفاء ــ سمعت نفسى اقول فجأة :

ــ ماقولك فيما لو عقدنا زواجنا ؟

وكانت المفاجأة بالنسبة لها شديدة غير متوقعة ، فبهتت لحظة ، واصابتها رعدة قوية كما لو مسها تيار كهربى ، ثم ما لبثت ان انفجرت ضاحكة وهتفت فى جذل :

ــ يا لها من فكرة رائعة ! ونسعد بالاقامة معا الى الابد !

وظللنا فى حديثنا الفكاهى المرح وتعليقاتنا الساخرة حتى انتهينا من طعامنا واوصلتها حتى باب المصحة : فقد كانت نوبتها تبدا من الثانية حتى العاشرة مساء . ثم عدت الى غرفتى ، واستغرقت فى قراءة كتاب فى الاجتماع وتناولت عشائى فى غرفتى .

وخرجت من الفندق فى العاشرة ، وفى العاشرة والربع تماما كانت قد وصلت شارع (القومندان ماريا) ــ وانتظرتها حتى اخرجت المفتاح من حقيبة يدها وكادت تضعه فى ثقب الباب ، فبرزت لها من الظلام .

فقالت فى هدوء : ــ اوه ! اهذا انت ؟

ــ شعرت بانى فى حاجة لان اتبادل معك حديثا جديا ، فأرجو ان تسمحى لى بالدخول لحظة .

ولم تتردد ، أو تصطنع موقفا تمثيليا مسرحيا ، بل ادارت المفتاح فى القفل بحركة طبيعية واعصابا هادئة وحينما هممت بالدخول اسرعت تقول :

ــ نصف دقيقة ، دعنى اطمئن الى نظافة المكان !

وسمعتها وهى تضغط على مفاتيح النور فى كل الغرف ؟ ثم وهى تلقى ببعض الثياب والملابس القطنية فى صيوان :

ــ تستطيع الآن ان تدخل .

وكانت الشقة توحى لاول وهلة بانها كانت تؤجر دائما لنسوة من طراز خاص :

غرفة الجلوس بها اريكة قديمة متهالكة ومقعدان ومائدة و « بوفيه » طويل من طراز هنرى الثانى ، والجدران تغطيها صور ورسوم بعضها غير محتشم .

ولاحظت ما أصابنى فقالت موضحة :

ـ الساكنة قبلى كانت احدى الراقصات فى ملهى ليلى وكانت مولعة بلصق صور الغلاف لبعض المجلات الخليعة على الجدران . اتشعر بالظمأ ؟ .

ـ كلا .

ـ ولا انا ، وهذا افضل ، فلست أدخر الا قليلا من الشراب وربما فسد مذاقه .

اكانت تعلم سبب زيارتى ؟ يحتمل جدا .

قلت لها : كنا نتحدث فى اثناء تناولنا الغذاء فى موضوع زواجنا .

وكنت أحاول أن افتتح الموضوع بطريقة سهلة .

ـ ومنذ أن افترقنا وانا افكر فى الموضوع تفكيرا جديا .

وكان ذلك حقا وصدقا ، فلم استطع تركيز انتباهى فى الكتاب الذى كنت اقرؤه .

ـ ولقد حضرت لأنبئك باختصار انى لم أكن هازلا ، وحيثما ادرت الفكرة فى كل اتجاه لم أجد سببا واحدا يقف فى طريق زواجنا ، فنسعد ونمرح كباقى المخلوقات .

فقالت وهى مازال تضحك هازلة : ولم لا ، حقا ؟

ـ فكرى فيما اقول ! ان ما يعرفه كل منا عن صاحبه فى الأيام القليلة الماضية ، ليزيد كثيرا عما قد يعرفه اى خطيبين مضى على تعارفهما عام كامل .

وصمت برهة ريثما التقط انفاسى ثم اردفت قائلا :

ـ انصتى الى بربك ، لن اكذب عليك او احاول خداعك فامثل امامك دور المحب المدنف المدله الذى يقدم قلبه فوق صينية من الذهب مثلما نقرا فى الروايات او ترين فى السينما ، كذلك انا لست اتوقع منك شيئا من هذا القبيل .

وخالجنى احساس بأنها متوترة الاعصاب من طريقة ضحكها واستمرارها في سخريتها .

ـ زواج الفلاسفة اذن ؟

ـ بل رباط بين صديقين يحترم كل منهما الآخر ويسعد بلقائه ويهنا بقربه ، زوجان يتعاونان على المضى جنبا الى جنب بقية الطريق !

وعندئذ بدا عليها الجد والاهتمام .

ـ يسعدنى ان اسمع ذلك يا آلين ، وانى لجد شاكرة لك .

ـ لست ممن يهتمون بالجسد .

وقد أخبرتنى فيما بعد ، انها ضحكت طويلا لسماعها ذلك وخاصة اللهجة والطريقة اللتين اتبعتهما وجفول بصرى حينما وقعت عيناى بالرغم منى على الصورة الكبرى الملصقة فوق الأريكة فقد هبطتا فورا الى مواقع اقدامى خزيا ورعبا فى حركة طفلية .

ولم يحدث بيننا مايخدش الحياء تلك الليلة ، او فى الليالى التالية طوال الأسابيع الثلاثة التى امضيتها فى الرفييرا .

وحين اقبلت تودعنى فى المحطة ، لم اكن قد تلقيت منها جوابا شافيا .

ـ سنرى هل أحدنا يشعر بالوحشة والحنين للآخر بعد أن نفترق شهرا كاملا ؟

ولم اكتب لها خطابا كاملا طوال ذلك الشهر مكتفيا ببطاقة يومية اشبه بنشرات الطقس كانت تحمل جملة واحدة

« اليوم الخامس : ما زلت مصرا » .

« اليوم السادس : ما زلت مصرا » .

وهكذا .. حتى التاسع والعشرين اما فى اليوم الثلاثين ـ وكان يوم سبت ـ فقد ذهبت لاستقبالها فى محطة ليون ، ورافقتها الى افخم الفنادق بميدان جراند اوغسطين ، حيث حجزت لها غرفة .. تعلو غرفتى .

وذهبنا ـ فى اليوم التالى ـ الى (لوفيسينيه) بعد ان

طلبتها سلفا انها لن تسمع من أمي حرفا واحدا حتى لا تستاء او تسيء فهمها .

وكان والدى فى غاية الرقة واللطف ، فهو هو الرجل الذى حنكته التجارب وعرفنا عنه النبل والشهامة طوال حياته الماضية.

وعقدنا زواجا مدنيا فى قاعة مجلس المدينة ، وقبل ان نعثر على شقة خالية للايجار .

وحينما اعلنت الحرب العالمية الثانيــة كنا لانزال نقيم فى الفندق نفســه ، وفى غرفتين متجاورتين هــذه المرة ، بينهما باب متوسط ، جعلنا الغرفة الاولى للنوم ، ورفعنا الفراش من الاخرى واعددناها لتكون غرفة جلوس .

ومرة اخرى ارتديت ملابسى العسكرية ، وانطلقت للجبهــة الامامية ، ولكنى سعدت بمنديل حريرى يلوح فى الهواء فــوق رصيف المحطــة .

الفصــــل الرابع

عدت مرة اخرى الى هندكشوت . الوجوه القــديمة نفسها والحانات نفسها حيث تراق أنهار من الجعة ، وكان هناك ايضــا ضابط الحدود ذو الشعر الاصفر الذى سبق أن بشرنا بالسلام ، ولم تكن بلجيكا قد دخلت الحرب بعد ، ولم يكن مسموحا لنا عبور الحدود ذات الالوان الاسود والازرق والاحمر والتى كان جنودنا يتكئون عليها للحديث مع بعض المارين .

ومضت الايام والاسابيع فى بطء السلحفاة على حســاب اعصابنا المتوترة ، وكان جيش العدو يرابط على الجهة الاخرى من خط ماجينو . يتبادلون الدعايات مع قواتنا من خلال أجهزة الصوت المكبرة .

وحينما حصلت على اجازتى الثانية وجدت امك تنتظرنى فى محطة الشمال ، ولاحظت قبل مغادرتى القطار ــ انها حامــل . وكانت ترتدى معطفا بنى اللون تركت ازراره مفتوحة .

ويبدو ان دهشتى كانت واضــحة على محيــاى ، فبعد أن

تبادلنا القبلات فى صمت قصير ، سألتنى فى لهفة فى وسط الزحام وضجة المستقبلين والمودعين على الرصيف : « اغاضبة أنت ؟ »

قضغطت على يدها التى كانت باردة كالثلج ، ثم هززت راسى .

وما كان من حقى ان اشعر بأى غضب أو دهشة او استنكار ؛ فالحمل ماهو الا نتيجة طبيعية لكل زواج ، وكان ينبغى أن اتوقع حدوثه ، ومع ذلك فقد اذهلتنى المفاجأة ، واحسست كأن ثمة شيئا غامضا لم استطع تبينه مافتىء يضرب مؤخرة راسى وكأنه مطرقة قوية تقرع بابا موصدا .

« سوف يكون لى ابن »

اما لماذا يكون ابنا وليس بنتا ؟ فذلك مالم اعرفه !

وامضيت ايام الأجازة الثلاثة فى فندقنا بميدان اوغسطين الاكبر ، قمت خلالها بزيارة لمؤسسة التأمين بشارع لافيت ، اطمئن فيها على الأعمال التى كانت تمضى باطراد كالمعتاد داخل المكاتب فى طريق سيرها المرسوم .

* * *

لم اكتب شيئا امس ولا اول امس ، برغم انى اغلقت على نفسى الباب معتكفا ساعات طويلة فى مكتبى استعيد فى نفسى ذكريات تلك الحقبة من حياتنا محاولا مااستطعت ترتيب الوقائع فى هدوء ، وكانت هناك حلقة مفقودة هى التى حالت دون ربط الحوادث بعضها ببعض مما سبب لى ضيقا شديدا .

وكنت آمل فى ازالة ذلك الضباب الكثيف الذى يغلف ذلك القسم من الذكريات قبل ان اسجله فى رسالتى ، ومع ذلك فقد مضى يومان وذهبت جهودى ادراج الرياح ، فأعدت قراءة ماسبق أن كتبته فى تلك الوريقات القليلة السابقة ، وخاصة تلك التى تشير الى الاسابيع القليلة التى قضيناها فى مدينة كان ، وخرجت من ذلك كله ناقما على نفسى .

* * *

واليوم وانا اعود للكتابة يخيل الى ان قبسا من فهم وادراك

يتسلل الى قلبى ، فيلقى حلقات من نور لعلها تساعد فى تفسير ما اصابنى يوم ذاك على محطة سكة الشمال الحديدية .

سيكون لى ولد يأتى من بعدى ليحكم على ويزننى بميزان الحق فيقول مالى وما على . !

فانا بنفسى حين كنت طفلا ثم صبيا اعتدت ان انظر الى ابوى بمنظار الناقد الدقيق الحريص على ابراز السيئات والحسنات مسجلا فى ذاكرتى الواعية ادق الملاحظات ، وربما لم يكونا هما يلاحظانها ، فمهما أوتى الانسان من وعى وذكاء فلن يستطيع ان ينظر فى مرآة نفسه فينقدها تماما ، فالقريب من الشىء لايعرف ابعاده كلها ، انما الذى يستطيع أن يرى العيوب بجلاء هو الذى يراها من بعيد وبعد سنوات تمر !

وانها قصة قديمة تتكرر كل جيل ، الابناء يرقبون الاباء ، كما كان هؤلاء يراقبون الاجداد !

قرات ذات مرة عبارة لاحد الكتاب : ان ابناءنا صورة منا ، وأرواحنا تتحدث على السنتهم !

واظنه يؤمن بقضية تناسخ الارواح القديمة ويعتقد ان ارواحنا تنتقل فى مدى مائة عام ، من الاب الى الابن الى الحفيد ، تؤثر فيهم الى اعماق نفوسهم ، يظل الحفيد يذكر ما يقوله الاب عن الجد ويراه بعين الخيال يتحرك امام بصره حتى اذا ما صار الحفيد ابا اندثرت ذكرى الجد واختفت بين طيات النسيان واصبح اسطورة قديمة بين الحكايات والاساطير ، وهكذا تمضى الاجيال موجة بعد موجة كأمواج البحر تأخذ الصاعدة من الذاهبة ، وتعطى الصاعدة ما يجىء بعدها الى آخر الزمان .

هل قرات من بين دراستك فى الليسيه ـ كما فعلت فى ايامى ـ تلك القصيدة الرائعة التى خلد بها الشاعر بيرانجيه اسمه ، والتى ما زالت محفورة فى ذاكرتى عن تلك الجدة العجوز التى رات نابليون حينما كانت بعد طفلة ، وهى تحدث حفيدها عنه ـ الجيل الثالث ، وكان الحفيد يتخيل انه يرى الامبراطور ممتطيا صهوة جواده ممتشقا سيفه ! .

وحينما يكبر الحفيد الطفل وتموت الجدة الطيبة تختفى تلك الصورة ولا يعود البطل الفارسى الا مجرد تابوت يرقد تحت قبة الانفاليد يتحدث عنه التاريخ !

مائة عام وبعد ذلك تنمحى كل ذكرى عن الآباء والأجداد ..

والمسئول عن الامساك بطرف أول خيط يا ولدى هو الابن !

سيكون لى اذن ابن ، سيتحدث عنى لأولاده بما انطبع فى ذهنه ذاما أو مادحا .

وكانت امك ايضا من بين نقادى او ربما قضاتى ، ولكنى انا ايضا .. بدورى — كنت وما أزال قاضيها ، فنحن متساويان فى الأخطاء ، هى تعرف نقط ضعفى ، وانا اعرف نقط ضعفها ، وبجانب ذلك بعد رأت جسمى العارى الضعيف فوق فراش مرضى بالمصحة .

وانى لاتساءل الآن دون أن أصل الى اجابة حاسمة : هل كنت اتزوجها أو تتزوجنى لو ان ظروفنا وقت ذاك قد تغيرت أو لم توجد اصلا ؟

❋ ❋ ❋

كانت ولادتك فى تلك الغرفة التى خصصناها لنومنا فى فندق ميدان أوغسطين الاكبر ، فى الثانية صباحا ، ولقد لاقت الخادمة عناء كبيرا فى العثور على احدى القابلات فى تلك الساعة حتى تخرجك الى النور . كلا بل يجدر بى ان أقول الى الظلام ! كانت باريس كلها فى حالة اظلام تام لسبب الحرب التى استعر أوارها ؟ ولم نكن نحارب وقتئذ فى « هندكشوت » بل انسحبنا بعد انهيار ذلك الخط المنيع « ماجينو » وبدأ الناس فى باريس وقد تملكهم الرعب يهاجرون منها زرافات ووحدانا .

ولم أكن — بوصفى جنديا — بطلا وفى الوقت نفسه لم اكن جبانا ، فلقد اديت واجبى قدر جهدى وبذلت غاية طاقتى فى القتال . ومع ذلك فقد اضطررت ذات يوم أن اترك مكانى فى مقدمة رجالى واتبعهم — وكان أغلبهم قد خلف سلاحه وراء ظهره — نجرى هاربين ما استطاعت أقدامنا أن تحملنا الى جنوب نهر السين ثم من بعده الى اللوار .

اختلط المدنيون بالجنود فى فوضى ضاربة اطنابها : جموع

حاشدة لا تعرف فيها الحابل من النابل ، تبحث فى يأس وفـزع عن ملاذ لها من عشرات الآلاف من طائرات الأعداء التى كانت تصب علينا حممها ، وتحصدنا على قرب شديد بمدافعها الرشاشة فوق رءوسنا وكأنها ترش أحد الحقول بقاتل للحشرات ! .

وكنت وقت ذاك أتوقع مولدك ، ومع ذلك فلم أسمع به الا بعد شهرين كاملين حينما استطعت ان احصل على ثيـــاب مدنية فى (انجوليم) وتسللت عائدا بمفردى متنكرا الى باريس .

لم اقتل فى الجبهة ، ولم اجرح او اقع فى الأسر ، كما حـدث لاغلب جنودنا ، بل عدت سليما معافى الى مكتبى فى شارع لافيت ومضيت فى عملى المعتاد مرة أخرى .

وكانت ثمة أماكن عدة شاغرة وخاصة بين وظائف مجلس الادارة التى كان يشغل معظمها اليهـود الذين فروا كالجـرذان المرعوبين وغادروا باريس قبل أن يدخلها هتلر وجيوشه ، ولجئوا الى المنطقة الحرة ، وذهب بعضهم الى انجلترا او امريكا !

ووجدت نفسى كفرس الشطرنج انطلق مدفوعا للأمام . ووثبت درجتين مرة واحـدة ، وانتقلنا الى شقة مفروشـة بأحسن الأثاث وافخم الرياش بحديقة ميدان مونسترو استوليت عليها بما يشبه الملكية ، وكانت تخص احد المديرين واسمه ليفى : هرب من باريس وذهب الى البرتغال فى انتظار دوره ليستقل باخرة الى نيويورك مفضلا ان يحتل احدنا شقته قبل ان يستولى عليها الألمان .

وظللنا نقيم بها حتى انتهت الحرب ، وبعد ان انتهت بعام كامل لان ليفى لم يعد الا فى عام ١٩٤٦ ، وفى الحق كان ذلك أول مكان شببت فيه وأمضيت فيه طفولتك .

ولم تكن طفولة سهلة ميسرة بالنسبة لك يا ولدى . وكان ذلك اشد ما يزعجنى ..

وما فائدة هذه الأوراق ان لم اكن معك صريحا ؟

شهدنا تلك الأيام حـــــرمانا كاملا من كثير من الضروريات ، وانطلقت امك تكد وتشقى وتنقب عن كميات اضافية من الطعام ، كنا نخشى عليك أن تموت من سوء التغذية ، أو تتجمد من شـــدة

البرد والصقيع ، فقد عدمت وسائل التدفئة ؟ وصرنا نبيت فى الظلام اغلب الليالى ، لا يطمئن مخلوق على نفسه من الاعتقال او التعذيب أو الموت رميا بالرصـــاص ! ينتزعون الآباء من بين اسرهم وذوى قرابتهم ثم يسوقون الأطفال والنساء الى غرف الغاز حيث يعدمون أو لا يعرف مصيرهم أحد !

وكنت ارقبك وفى قلبى خوف عليك .. تنمو وتحبو فى ذلك الجو الغريب المحيط بك والذى لا يخصنا ، فتلك الصـــور على الجدران كلها لأسرة ليفى التى لا نعلم عنها شيئا : اجداد وعمات وخالات وأبناء لا يمتون لنا بصلة أو علاقة كنت أحمـــل لهم فى اعماقى كرها شديدا .

وكان الطابق الذى نشغله من الفخامة والروعة بحيث لم يكن فى وسعى أن ادفع ايجاره لو كانت الظروف طبيعية . ثلاث غرف فسيحة مؤثثة تأثيثا فاخرا من القطع الثقيلة الثمينــة والطنافس العجمية تغطى كل شبر من الأرض الخشبية اللامعة وغرفة الطعام التى تتسع لعشرين شخصا .

ـ حذار يا جون بول ! لا تلوث هذا المقعد انه لا يخصنا !

وفى الحق ، لم يكن فى ذلك المسكن ما يخصنا سوى حاجاتك انت يا بنى ، فقد كان من المتفق عليه ان نسلم كل شىء بالحـــالة التى تسلمناه عليها ، فلم نبدل شيئا أو نحركه من مكانه حتى الأوراق التى كانت بأدراج المكتب لم المسها ! .

وكانت لدينا وصيفة ـ فرناند ـ هل تذكرها ؟ لقد تركتنا بعد فترة من الوقت لتتزوج كهربيا .. كانت تمضى اغلب أوقات الاصيل معك جالسة على اريكة فى احدى الحدائق ترعاك بعينيها ، فقـــد كانت امك لكثرة مشاغلها فى تلك الايام لا تكاد تجد لحظة واحدة من الفراغ حتى تهتم بك .

هل تدهش لو اكدت لك ان هذه الايام فى حيـــاة امك كانت بالنسبة لها اياما ذهبية واجمل فترات حياتها الزوجية ؟

وما كنت اكاد أشعر بالحرب فى غمار مشاغلى بشارع لافيت، اذ تضاعفت مسئولياتنا لتلك الظروف الطارئة وقلة الموظفين العاملين الذين نقص عددهم الى الثلث !

وسوف تعجب اذا ادركت ان عمل الخبير الاكتوارى فى شركة التأمين قد ازداد أهمية وتعقيدا بسبب الحرب ، فقد كان علينا ان نعيد تنظيم كل ارقامنا وتقديراتنا لتساير حوادث القتل التى كانت تقترن بجنايات السرقة كرها والهلاك جوعا أو بردا أو خوفا وقلقا بالسكتة القلبية او نزيف المخ وغيرها من اسباب الموت المفاجىء بخلاف حوادث السلب والنهب والاتلاف والحرائق التى كانت تشب دواما فى كل مكان دون ان نصل لمعرفة فاعل لها او سبب معقول بالاضافة الى مئات الكوارث الاخرى التى لم يرد لها ذكر فى بوالص التامين القديمة لما قبل الحرب ، وكل ذلك كنت عنه مسئولا ، واى خطأ فى التقدير يسبب للشركة خسارة بلايين الفرنكات .

وكانت الحرب ـ بالنسبة لوالدتك ـ تعنى شيئا آخر اكثر اهمية ، وما يشغل بال كل ام مسئولة عن بيتها عادة ، هو البحث عن طعام يمسك رمق الاسرة ويرد عنها غائلة الجوع ، وفى سبيل ذلك كانت تتحمل مشقات كبيرة فى الانتقال الى الريف والقرى المجاورة لباريس حيث تلقى هوانا شديدا فى المساومة والشراء .

واكتشفت فجأة انها كانت تمارس ولبضعة أسابيع دون علمى نشاطا آخر يختلف فى نوعه عن مجال البحث عن الطعام لنا .

فعلى اثر عودتى من عملى ذات مساء انحنيت عليك اطبع قبلة على جبينك الصغير ، فلاحظتها تحدجنى بنظرة حادة ، كما لو كانت تريد أن تنقل لى رسالة سرية وفى غفلة منك رفعت سبابتها الى شفتيها محذرة حتى لا تشعر انت بما يدور !

وبعد ذلك بلحظات انتحت بى ركنا بعيدا فى غرفة الجلوس التى لم تكن نستعملها لافتقارها الى وسائل التدفئة ثم همست لى قائلة :

ـ ابتعد عن حجرة النوم الخضراء .

وكانت غرفة مهجورة خالية ، لم نستعملها قط فما كان بى حاجة اذن لدخولها فحملقت فيها مشدوها ، حتى اسمع منها تفسيرا .

ـ بداخلها رجلٌ وارجو الا يعرف جان بولْ عن ذلك شيئاً .
وشعرت بدوار شديد فتماسكت وانا اقول :
ـ من هو ؟
ـ انسان يبحث عن مكان امين يختبيء فيه لبضعة أيام .

واعتدنا بعد ذلك ان « نستضيف » عددا من الناس بعضهم يمكث ليلة واحدة او اسبوعا بيننا ، ولم اشاهدهم قط الا حينما وقعت عيناى على احدهم مصادفة ، فسارع باغلاق باب غرفته فى وجهى ..

ـ يحسن بك ان تجهل كل شيء عنهم حتى اذا ما ستجوبوك انكرت صادقا ، وضميرك مرتاح !
ـ وفرناند ؟
ـ لن تقول شيئا كل ما يهمها هو الحصول على المال . وانا ادفعه لها بسخاء .

وكانت امك تقوم برحلات كثيرة لم تحطنى بها علما ، وانى لأذكر انك حين كنت فى عامك الثالث ، سألتنى ذات مرة : لماذا تكثر مامى من الغياب فى هذه الأيام ؟

وكانت تخفى عنى تحركاتها احيانا ـ لا لفقد ثقتها بى ـ بل أنا أعلم يقينا انها كانت تحرص على ان تتجنب توريطى فى أسرار قد تعرضنى لو اندمجت فيها للرمى بالرصاص ، كانت تهدف الى التقليل من الخسائر فى الأسرة ما استطاعت ، فلقد بدأ عهد الارهاب . ونشط الجستابو فى التعذيب والاستجواب ، فأصبح الانسان مهددا فى حياته وماله لا يأمن ان يطل من نافذة أو يخرج من الباب !

ومع ذلك ، كانت تلك المخاطر والأهوال أحب الأشياء الى قلب امك ، فقد وجدت الميدان الذى هويه فؤادها .

ولذلك السبب قلت لك ان هذه الفترة ربما كانت من اسعد أيام عمرها فى حياتها الزوجية .

فكل منا مهما كان مركزه فى المجتمع وضيعا كان ام رفيعا ، يتمنى ان تكون له اهمية فى بعض النواحى ، حتى يشعر بقيمته بين

الناس ، ويحقق بعض احلامه وآماله !. الا ترى ان السبب الاكبر فيما يمر فيه العالم من اضطراب وقلق نفسانى هو افتقارنا جميعا الى تحقيق ما يدعم خيالاتنا ويحقق أحلامنا ويعيد الثقة الى نفوسنا ؟ ما احوجنا جميعا الى التجرد من عالمنا المادى القائم على المصالح الشخصية والبحث عن المثل العليا فى عالم الروح !

قد تسأم من هذا الحديث الذى يبدو كأنه محاضرة فلسفية جامدة ثقيلة عن نفسك ، ولكنى أذكر ذلك كى تفهم الكثير عن والدتك التى خاطرت بنفسها وجازفت بالتشويه والتعذيب والموت من أجل تحرير فرنسا من اعدائها فى أشد الظروف قسوة ورعبا .

ومنحوها ارفع الأوسمة عام ١٩٤٥ ، تقبلته فى هدوء وبلا ضجة ، واستحقته عن جدارة وايمان .

ولكنى فقدت زوجة كما فقدت انت اما فى غمرة تلك الأحداث .

معذرة يا ولدى اذ اذكر لك ذلك ، ولكنها الحقيقة المؤلمة التى لا ريب فيها ، فلقد خرجنا من الحرب ونحن على طرفى نقيض ، ولم تعد الحياة المنزلية وواجبات الامومة تروق لها بعد ذلك النشاط الكبير والحماس العظيم ويخيل الى انها كرهت ان تحبس نفسها بين جدران اربعة .

لقد وقع كل منا فى الخطأ نفسه حينما تصورنا ان ذلك النوع من الصداقة يصلح ان يكون اساسا كافيا للحياة فى عش واحد . وقعنا فى ذلك الخطأ حين كنا فى مدينة « كان » فى جو مثير من المرح والأحلام .

ولست الومها او احملها تبعة ما حدث . كذلك لن تستطيع هى ان تفعل ذلك ايضا .

ثم اين هو ذلك الصديق الذى يدوم لك وللأبد ؟

فالانسان منا يبدأ حياته بأصدقاء الطفولة فى المدرسة الابتدائية ولا يلبث حتى يتخذ آخرين جددا فى المدرسة الثانوية سرعان مايحل محلهم غيرهم فى الجامعة . وهكذا يقفز فى حياته عشرات وعشرات فى اثناء حياته العملية الاولى وفى متوسط العمر ، ثم حينما يتقدم به السن نحو الشيخوخة .

تركب القطار من أول الخط ؟ يصعد البعض ويهبط آخرون ؟ ينطلقون فى شتى الاتجاهات .. بعد ان يلوحوا لك بأيديهم مودعين وسرعان مايبتلعهم الظلام !

ولا اعرف احدا ـ من بين من عرفت او سمعت ـ احتفظ بنفس الاصدقاء لمدة عشرين او ثلاثين عاما ، ولا اذكر اولئك الذين يتلاقون مصادفة كل عامين او ثلاثة فيتصافحون فى حرارة ويتعانقون وهم يتبادلون ضرب الأيدى على الاذرع والاكتاف يستعيدون ذكريات الماضى البعيد السعيد .

ولو ان رجلا مثلى وله مثل مواهبى وصفاتى منذ عشرة اعوام لكان من المحتم ان يتغير ذوقه ومزاجه ويتطور فى عاداته وطباعه خلال تلك الفترة من الزمان ، وانا نفسى قد تطورت ايضا فى هذه المدة وغدوت شخصا آخر يختلف تماما عن الاول ، انطلق كل منهما فى طريق آخر مخالف ولا شبه بينهما اطلاقا .

وليس اطيب للقلب وأجمل للنفس من ان يتاح للانســـان أن يتقابل مع صديقه ، فى الوقت الذى يريد ، ومتى يحب .. اما أن تلقاه امامك وقتما وحيثما لا تتوقع أن يفاجئك فى لحظات ضعفك وجبنك فذلك مالا يحبه مخلوق ، فهل يمكن ان ينطبق ذلك على الصديق من الجنس الآخر ؟ طالما فكرت فى ذلك ، وما زلت أفعل حتى هذه اللحظة بالرغم من انى ـ منذ مأسـاة عـام ١٩٢٨ ـ لم اضع ذلك تحت التجربة والاختبار ، ومع ذلك فانا اومن بأن الحب عامل هام ، لايمكن الاستغناء عنه فى تشييد واقامة ذلك الصرح الشامخ ، فهو يعنى ان الزوجة او الزوج يذوب ويفنى فى النصف الاخر ، ويصبحان فردا واحدا وجسما واحدا اذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء .

واجد نفسى مضطرا لان اضيف هنا شيئا الى ماذكرته عن أبى وأمى ، وهو ثقتى المطلقة فى ان ما بينهما كان حبا جارفا حقيقيا الى الحد الذى جعل ابى يمل الحياة بعد مماتها . بيد انه مازال امامنا متسع من الوقت حتى أحدثك عن ذلك فما زلنا فى جيلنا اتحـدث عن نفسى وعن والدتك خاصة ولم اكن اعتقـــد حينما بدات ، انى

صافيض فى ذلك على غير ما توقعت مما يضطرنى لان استمر حتى النهاية .

وانا اجد ـ فى صومعتى ـ ملاذا فى الابتعاد عمن لا احب من الناس واجد فيها جنة احلامى .

وامك ـ بدورها ـ تجد ملاذا فى نشاطها الدائب .

وربما ظن اصدقاؤنا فيها الطموح ، وانها فى الحق لكذلك فلم يعد لديها طيارون انجليز او اعضاء للمقاومة السرية ، تمد اليهم يد العون والمساعدة ، ولم يعد لديها رسائل هامة او قنابل تحملها فى سلة الخضراوات ، كذلك لم تكن لها موهبة الكتابة مثل شقيقتى تحول اليها طاقتها المشحونة .

وكان اول ما حققته من امانيها ، هذه الشقة بشارع ماكماهون التى اشترت اثاثها الفاخر بنفسها واشرفت على تنسيق كل قطعة فى ارجائها مع عمل الديكورات الفاخرة ، ثم استقبال الناس من ذوى الحيثية والمناصب الخطيرة ، فهى لم تنس قط تلك النكسات التى ترعرعت فيها وشهدت فيها طفولتها بمدينة نيس ، او أصل والديها المتواضع البسيط .

وهى لاتزال فى طريقها للصعود نحو القمة ، ولسوف يخيب املها فيك ان لم تحذ حذوها فى ارتقاء السلم حينما يحين دورك أنت ايضا .

وارجو ان تضيف الى ماذكرت ذلك الفراء الثمين الذى اشترته اخيرا والذى يساوى وحده ثروة طائلة ، والمعطف الانيق الذى سبقه ، واول سيارة خاصة فرحت بها ، وكذلك أول مرة دخلت فيها محلا للمجوهرات فى زهو وكبرياء .

وربما تغير وجه التاريخ وصرنا اسعد حالا لو كان زواجنا عن حب بدلا من ان تعقد تلك الصفقة التجارية ، او زواج الفلاسفة كما سبق واطلقت نفسها عليه ذات يوم ، عندئذ فقط كنت اشعر بأن لى شريكة العمر ، وكنت تجد فيها الأم التى تفهمك .

سامحنى ياولدى ، انا مضطر لأن اذكرلك هذا ، وارجو الا اكون قد اسات اليك .

قبل ان ابدأ كتابتي هذا المساء ، مضيت أعيد قراءة ما كتبت اخيرا ، فشعرت بالكثير من الاثم وعدم الارتياح وكأني قد ارتكبت جرما ، واوشكت ان امزق الاوراق كلها .

كنت احاول - بلا ريب - ان اسجل انطباعات نفسي بين السطور لازيح عبئا ثقيلا عن قلبي وضميري ، واكاد اشعر باني اكتب لنفسي اكثر مما اكتب لك ، وربما خطر لي - بمجرد أن انتهي من رسالتي - ان القي بها في الموقد طعمة للنيران .

اتراني فاعل ذلك ؟ لسوف نرى .

وان امك لتبدو - رغم تجاوزها الثامنة والاربعين - اصغر من ذلك بكثير « بفضل حيويتها وروحها المرحة وعينيها اللامعتين » وهي ما تزال موضع حسد وغيرة من جميع الشابات الصغيرات .

فهي ليست كغيرها من النساء ، ممن يفقدن رشاقتهن بعد الزواج ، بل ان جسمها يزداد حسنا وجمالا بمضي الايام ، ربما كان ذلك لانها تنتقي أروع الثياب واكثرها تناسقا ، أو ربما لأن السنين قد زادتها خبرة ومرانا باختلاطها بالباريسيات اللاتي رأين الكثير وسمعن الكثير وتعلمن الكثير أيضا .

وهي لاتختلف عن والدة صديقك - زابو - التي قد تجاوزت الاربعين بعدة اعوام ، ومع ذلك فما زالت معبودة الملايين من عشاق فنها الذين يرون فيها المثل الاعلى للرشاقة والجمال .

* * *

أصبح عيد الميلاد على الابواب والمدينة قائمة على قدم وساق وكأنها قد أصيبت بالحمى ، فأنوار النيون الملونة تضيء وجهات المتاجر الكبرى تظهر وتختفي ثم تعود فتخطف العيون في حلقات ورسوم رائعة تحمل الاعلانات التي تدعو الجماهير للاقبال على الشراء ، وبدأت المسارح ودور السينما تقدم اقوى المسرحيات وأروع القصص ، والناس من جميع الطبقات يكادون يطيرون من شدة اللهفة والسعادة ، وازدانت نوافذ الدور بثوب قشيب من الضياء الباهر وسكانها يتأهبون للاحتفال بالليلة الخالدة .

وكان كل زملائي بالمكتب يتحدثون عن الهدايا واين يقضون

السهرة المرتقبة حتى الصباح ، وكنت قد انتهيت بدوري من اعداد الاحصائيات عما نتوقع حدوثه من حوادث القتل والمصـــادمات والحرائق والانتحار .

وسوف نحتفي بعيد الميلاد مثل باقي الناس ، وسنقيم شجرة الميلاد ، شجرة متواضعة مما يناسب الكبار . فقد كبرت ولم تعد طفلا تستهويه المصابيح الكهربية الملونة ولا القطر الكهربية .

وكنت قد طلبت مني قاربا بخاريا ، وسوف أشتريه لك ، وقد مررت فعلا عقب خروجي من عملي هذا الأصيل بالمتجر الخاص ، ودفعت ثمنه مقدما ، وسيكون تحت تصرفك في الرابع والعشرين من ديسمبر .

وســـوف اقدم لوالدتك قرطا من الماس يتفق طرازه مع عقدها الثمين .

وحين كنا في لاروشيل عام ١٩٢٨ كانت الدنيا باسرها تحتفل بعيد الميلاد ، ماعدا اسرة لافرنسوا .

اما اليوم ـ فقد منحوني هديتي ، هدية مؤسسة التامين التي اعمل بها ، ولم تكن في هذه المرة مظروفا يحتوي على مبلغ من المال أو صندوقا من السجائر غالي الثمن ، بل اضطروني الى تحرير اقرار كاذب مزور حتى احصل على تلك الهدية مما افســـد سروري بهـــا .

وهل تراني كنت اشعر بالسعادة والسرور لحصولي عليها لولا تلك المأساة او السحابة التي تظلل الماضي البعيد ؟ .

ربما .

كانت الساعة الثالثة حينما اخبروني بان المدير العام يريد أن يراني في مكتبه ، وهو رجل مهم جدا ، نخشاه جميعا فبين يديه مصاير الآلاف من الموظفين والمفتشـــين ، ويحتفظ دائما بأقراص النتروين في درج مكتبه ، وفي جيوب سترته ومعطفه فهو مهدد بالذبحة الصدرية في اية لحظة .

وحين يتناول طعامه في ارقى النوادي والمطاعم ، أو يدعى لبعض الحفلات او السهرات الرسمية ، لا يقدمون له الا ابسط واخف

انواع الاطعمة التى حددها له الاطباء يتناول منها القليل جدا كانه عصفور !.

وربما كنت انا الوحيد الذى يعرف لماذا يحتفظ بذلك الشارب الانيق ذى الطرفين المفتولين والمرفوعين لاعلى والذى يتحول سريعا من الاسمر للأبيض ، ذلك حتى يقصر المسافة بين انفه وشفته العليا ويخفى بهذه الطريقة رقة وطيبة فى ملامحه ، فبدون ذلك الشارب «المهيب» الذى يرتعد لمرآه جميع مرءوسيه . تراه شخصا عاديا مثل عشرات الناس ممن تقابلهم فى اى مكان .

ـ اجلس ياسيد فرانسوا .

وتغطى جدران مكتبه لوحات زيتية تمثل المديرين السابقين بالتوالى على حسب ترتيب وتواريخ وجودهم فى مناصبهم ، وحينما يذهب ـ ذات يوم ـ سوف يضيفون صورته فى المكان المناسب .

وكانت أصابع يديه طويلة والجلد الذى يكسو اليدين به بقع سوداء لاتسر الناظرين .

وحدج ازرار سترتى بنظرة ذات معنى .. ثم قال :

ـ اذا لم اكن مخطئا فى ظنى فانت لم تتقلد بعد وسام « اللجيون دونور » !.

فهززت راسى .

حسنا .. سوف نعوضك هذا التقصير فانت جدير به ، وسيكون اسمك ـ اذا ما صدق حدسى ـ ضمن قائمة من سينعم عليهم فى العام الجديد ، تلك هى هديتى اليك بمناسبة عيد الميلاد ، فقد كنت اتناول منذ برهة وجبزة الغذاء مع وزير المالية الذى تبين ان لديه لحسن الحظ بعض الاوسمة والقلادات الباقية ، وسألنى : هل اعرف من يستحق شيئا ؟ . واذ كنا فى الجامعة معا وثمة صلة قربى بعيدة بين زوجتينا ، فلن تجد نفسك مضطرا الى اتخاذ الشكليات المعروفة المعتادة وما عليك الا ان تملأ هذا النموذج ».

واشار بسبابته الى ورقة مطبوعة بها امكنة خالية للأجوبة كانت على طرف مكتبه .

ـ أعدها لى فورا وتقبلَ تهنئتى الحارة !.

وهو ـ بنفسه ـ يحمل نيشان الاستحقاقَ من طبقة فارس فهل تراه يستحقه باخلاص ؟ وهل هو يعتقد حقا انى استحق ذلك

الوسام عن جـــدارة دون باقى المواطنين الذين أدوا للوطن أجل الخدمات وأكبر التضحيات ؟ وهل يعتقد ذلك الوزير الاحمق الذى يرغب فى بعثرة بعض الاوســـمة التى بقيت فى مـكتبه ـ ذلك أيضا ؟.

انى لاتخيل ماحدث بالضبط فى تلك المادبة : الوزير على رأس المائدة ، والسيد المدير يجلس عن يمينــه ، ويبدو أن الاول قد أفرط قليلا فى أنواع الشراب حتى مال على المدير ضاحكا وهـــو يقول :

ـ وعلى فكرة ياهنرى ، لا تدهش اذا أخبرتك انه مازالت لدينا بعض النياشين لم توزع بعد ، فقد تبين اننا قترنا قليـلا فيما يبدو ونحن نكتب القوائم والكشوف .. اتريد شيئا منها ؟.

ويطرق المدير برأسه قليلا يستعيد فى ذاكرته أسماء مرءوسيه؟ ولسبب ما يتذكرنى ، فيرفع رأسه وهو يقول :

ـ أجل ، خبيرنا الاكتوارى ، سوف يسعده كثيرا لو حصل على « اللجيون دونور » .

ترى ؟ لو كان قد ذكر له اسمى . . أفما كان الوزير يقطب حاجبيه متسـائلا :

ـ هل هو أحد أقارب فيليب لافرنسوا ؟ ..

فقد كانا يبلغان عمرا أتاح لهما أن يسمعا بذلك الحادث القديم؟ ولا أعنى أنه يقف عقبة فى سـبيل تكريمى ، فلم تكن لى ـ بذلك الموضوع ـ أية علاقة من الوجهة الرسمية .

ومع ذلك فهانذا أجد نفسى مرغما على التوقيع على اقرار مزور كاذب !.

فمنذ أن أبى أحد الصحفيين قبول وسام « اللجيون دونور » الذى منحته اياه الدولة ، ورفضه باباء وشمم ، وأعاده بطريقة غير مهذبة دلت على شدة احتقاره له ، مما أحرج الحكومة ووضعها فى مركز دقيق ، منذ ذلك الوقت ـ وقــد مضى عليه عشرون عاما ـ والدولة تشترط فيمن ترشحهم احدى الجهات للحصول عليــه ؟ أن يقدم طلبا موقعا عليه منه ، يؤكد فيه مبررات الاستحقاق ..

وأنا لم يقتصر دوري على أني ملأت نموذجا ووقعته بامضائي فحسب للحصول على وسام لم يخطر قط ببالي او افكر فيه ، بل استكتبوني اقرارا بعدم سابقة مثولي امام اية محكمة جنائية .

وليس في ذلك الامر ما يعرضني للعقاب او يوقعني تحت طائلة القانون ، ومع ذلك ، كان ذلك في نظري انا شخصيا كذبا وزورا وبهتانا ، فقد كنت أستحق -وعن جدارة ايضا - ان احاكم ذات يوم امام محكمة الجنايات !.

وربما كان ايماني ضعيفا ، ومع ذلك فلا املك الا الشعور بالغبطة تغمر حنايا قلبي كلما سمعت أجراس الكنائس يتردد صداها .. والسعادة تهز كياني حينما ارقب مواكب الكرنفال والناس يرتدون الثياب التقليدية ويرقصون ويمرحون ، كذلك اشمخ بأنفي زهوا وكبرياء . وانتفخ صدري عزة وقوة حين تقع عيناي على جنود الجمهورية في الاستعراض الكبير تهتز لهم الارض وهم يدقونها بأحذيتهم الثقيلة على أصوات الطبول وانغام الموسيقى ! .

وطالما أرهفت اذني - صبيحة كل أحد - الى نواقيس كنيسة القديس فرديناند في الجهة المقابلة من الميدان ، واشعر بما يشبه الغيرة وأنا أتطلع من النافذة فألمح جيراننا وقد تأبطوا أذرع نسائهم وأمسكوا بأيدي أطفالهم ، الجميع في أبهى زينتهم وهم داخلون أو خارجون من الكنيسة يلوح البشر وعلامات الرضا على وجوههم .

فلست اذن جامد الشعور بليد العاطفة ، بل أن بين صدري ضميرا لايكف عن تذكيري بذلتي ، ويؤرق نومي ، ومع ذلك فلا أستطيع أن ارفض ذلك الوسام من اجل أمك حتى ترفع رأسها ومن اجلك انت ايضا ياولدي ..

ولعلك لم تسمع بعد أننا سنقيم بعد ايام قليلة وفي عيد رأس السنة حفل استقبال كبيرا ، سوف يحضره نحو اثني عشر رجلا من كبار القوم والشخصيات اللامعة لمناسبة منحي ذلك الوسام ، وسترى ديزيريه كبير الخدم بمطعم بوتيل وشابو مرة اخرى ،وهو يدفع امامه العربة الفضية الكبرى التي تحمل أطباق المشهيات والأكواب البلورية وسلال الحلوى والبتي فور !.

هل تذكر انك ـ حين كنت صغيرا ـ وتدعوه بصديقك العظيم؟ لانه كا نيختلس الخطا نحو غرفتك من وقت لآخر حاملا اليك بعض الوان الحلوى وصنوف الفطائر ؟.

كان ذلك فى الماضى اما الآن فسوف تقف على قدميك معنا وقوف الند للند طويلا رشيقا ، بيد انى اخشى ان يتملكك الخجل والاضطراب ، فهذه هى المرة الاولى التى نسمح لك فيها بشهود حفل استقبال ، وربما لم تعرف مكانك جيدا بين هؤلاء القوم ،وانت تدير بصرك فيهم وفى انا ايضا ، وفى نفسك انطباعات قد تبدو فى عينيك . ولن يستطيع تفسيرها احد .

اتراك ستصفنى بالحماقة والنزق حينما ترانى اعانق المدير العام باعتباره عرابى وكفيلى ؛ فقد جرت العادة ان يكون لكل من يحتفل به من حاملى اللجيون دونور لاول مرة عراب مثل اطفال المسيحيين حينما يعمدون فى الكنيسة ؛ وهل ستسخر منى حينما تسمعنى القى خطاب الشكر بقدر ماتعيه ذاكرتى ، وانت تعلم انى لا اكره شيئا فى الدنيا مثل الخطابة ؟.

وقد حصل زوج عمتك ، فاشيه على اللجيون دونور ايضا ولم يأته عفوا او صدفة كما حدث لى ـ وذلك حق ـ بل كافح طويلا وبرز اسمه فى الاوساط الادبية قبل ان يستحقه ؛ بل انه لشديد ثقته فى نفسه ، كان يعلم انه سيناله بكل تأكيد قبل ذلك بأربعة أو خمسة اعوام على الاقل ، فهو من ذلك الطراز من الناس الذى يقدر سلفا كل خطوة يخطوها .

وهو قد بدا ايضا من اول الدرج : كان ابوه شرطيا برتبة نفر، وامه حائكة ثياب ، ويقطنان ضاحية فتيلى بالقرب من لاروشيل ، وهى مجموعة من البيوت المتواضعة ذات الطابق الواحد يقطنها كتبة المصانع والمعلمون وعمال السكة الحديد وعجائز النساء ممن يتكسبن من اعطاء دروس البيانو والموسيقى ، واذكر انى زرتها فى صباى ورايت الرجال يعملون فى حدائق منازلهم الخلفية .وتساؤهم يثرثرن من فوق الحواجز والاسوار .

لاتحسبنى احتقر الطبقات الدنيا ، او احط من قدرهم ، على

العكس، انني لاحترم فيهم طموحهم وكفاحهم واحسدهم على نجاحهم بيد انى استطيع ان اميز اكثرهم مهما ارتفعت مراكزهم فى الحياة بما المحه فى نظراتهم من عداء سافر وكراهية عميقة لمن هم دونهم، ذلك لأن ما يدفعهم ويحثهم على التقدم والتفوق ليس مجرد الرغبة فى المناصب ، بقدر حرصهم الشديد ولهفتهم القوية فى التخلص من شيء يشدهم ويجذبهم الى القاع ، فما يكاد الواحد يجد الفرصة قد سنحت له ليطفو فوق السطح حتى ينفض ثيابه اشمئزازا مما علق به من ادران الماضى ، ولا يتطلع الى من خلفهم وراء ظهره الا شزرا ، بل ان عقدة النقص التى ترسبت فى اللاشعور من عقله تجعله يقسو فى المعاملة على من يسوقه سوء الحظ فيعمل تحت امرته ، وكأنه ينتقم مما شاهده ولقيه فى طفولته .

وكثيرا ما ساءلت نفسى هل كانت امك اسعد حالا مما هى الآن لو تزوجت رجلا مثل فاشيه ؟ اما كان كل منهما يعضد صاحبه وتتضافر قواهما فى شق طريقهما نحو النجاح ؟.

ولا استطيع ان اخدع نفسى او اضعها فى غير موضعها ، فانى اعلم تماما ان طراز امك من النساء لا يتلاءم معى ، وكان يجدر بى ان أبحث عن امراة بسيطة محدودة المواهب تلزم بيتها قانعة بادارة شئونها المنزلية ، وتجيد طهى اصناف الطعام ورعاية الاطفال ، امراة مثل السيدة ترمبلى ، او تراني مخطئا اتشبث بالخيالات والأوهام؟ وهل هى سعيدة بزوجها حقا ؟ .

وبفرض ان والدتك كانت قد تزوجت فاشيه اما كانت تستقل فى اشباع طموحها نحو الشهرة والمجد ، فى ميدان يختلف تماما عن ذلك الذى لم نجم زوجها فيه ، ولا تلبث عاجلا او آجلا أن تنشق عليه ، وتضرب بذلك الأحمق عرض الحائط؟.

هذا يذكرنى بما حدث هذا المساء .. فلقد سمعت صوته ـ وانا اعرف صوته جيدا ـ يتحدث فى همس مع والدتك أمام الباب الخارجى ويقول لها : الن يخرج آلين معك ؟.

ـ انت تعرف آلين اكثر منى لو استطعت ان تحرك جبلا لكان ذلك ايسر من ان تجعله يخرج من البيت بعد العشاء !.

وليس غيرنا فى الشقة الآن انا وانت ؟ ولا ينبعث اى ضوء الا من غرفتك ومكتبى وباقى الغرف تسبح فى ظلام دامس ، انت تجلس أمام قمطرك تقرأ وانا اجلس امام مكتبى أحاول الكتابة ، وهأنذا اسمعك فى هذه اللحظة وانت تنطلق نحو الثلاجة الكهربية وتفتحها لتعد لنفسك كوبا من الليمونادة وبتقدير الزمن الذى قضيته فى المطبخ ، عرفت انك قد وقعت على بعض الصحاف التى سال لها لعابك شريحة من اللحم البارد او ربما قطعة من « الجاتوه » ؟.

وتوقعت ـ وأنا امسك انفاسى ـ ان تجىء الى غرفتى فنتبادل بعض الحديث ونسرى عن نفسينا ، فلا شك انك قد رايت الضوء ينبعث من تحت عقب بابى فى اثناء مرورك به ، ولكنك ـ اكبر الظن كنت متأثرا بما اعتادت أمك أن تنبهك اليه دائما من عدم اقتحام خلوتى حيث أكون مشغولا فى عملى ـ فخشيت ان تغضبنى وتقطع على تفكيرى !.

وانى لأعجب مما انتابنى هذا المساء ، فأنا اشعر ببعض الاضطراب وانا اكتب كل ذلك الهراء محاولا عبثا ان ابطىء ما استطعت قبل أن اصل لتلك المرحلة الحاسمة من قصتى ، والتى اراها تقترب منى برغم انفى بخطوات حثيثة ، انها يا ولدى أهم ما فى رسالتى اليك ، بل هى السبب المباشر فى كتابتها لك .

ولكنى ـ وقبل ذلك ـ ارى نفسى مضطرا الى تذكيرك بحادثة صغيرة ، ارجو الا تترك فى نفسك انطباعا بانى احاول اثارتك ضد والدتك ، حدث ذلك وانت فى فرقتك الخامسة ، وحتى ذلك الحين ، وانت الاول دائما فى فرقتك خلال مراحل تعليمك ، اللهم الا نادرا حينما يشتد التنافس ويخونك الحظ فتحتل المركز الثانى فى الترتيب ، ثم يشتعل حماسك فتعود لتحتل المركز الأول !.

وكنا نحرص فى نهاية كل عام على أن نحتفل بتفوقك ونقدم لك هدية ثمينة على سبيل التقدير والتشجيع !.

ولست أدرى كيف شعرت فجاة بأنك على غير عادتك ولست على مايرام ذلك العام ؟ ربما حاستى السادسة هى التى نبهتنى لذلك ، او عن غريزة مكتسبة مما جربته فى صباى ، ومن ثم فقد ادركت

انك تعانى قلقا نفسيا ، اكبر ظنى انه يعود لحاجتك الشديدة لشىء من الرياضة والراحة والاسترخاء الذهنى ، فقد لاحظت انك تركز جل فكرك واهتمامك فى الاستذكار والتحصيل دون أن تقدر لبدنك حقا .

وكنت قد تعرفت فى اثناء اصطيافنا — فى العام السابق — بأراشون ببعض الأولاد وكانوا يمتلكون زورقا ، فطلبت منى أن تكون هديتى لك فى عيد الميلاد زورقا مثله ، ولكن أمك سارعت بلا حق تعارضك فى خشونة ظاهرة وتقول :

— ما اسخف رأيك ! اتطلب هدية لعيد الميلاد لن تفيد منها الا فى الصيف القادم وبعد ستة شهور كاملة ؟ ثم اين نستطيع ان نحتفظ به فى باريس ؟ انضع زورقا فى شقتنا ؟ فكر فى هدية اخرى تناسب عيد الميلاد اما الزورق فعليك ان تشمر عن ساعدك وتجد وتكد فى الاستذكار ، وسوف نشتريه لك فى الصيف القادم ليكون هدية تفوقك ونجاحك !

وفى رأيها انك حتى تستحق الجائزة ينبغى الا تفوز بأقل من المركز الثانى ، ولا شك انها معذورة فى هذا ، فانت الذى عودتها بنفسك ذلك .

وكنت — قبل امتحانك بشهر كامل — قد ذهبت لاتفرج على الزوارق فى ميدان الجيش الكبير ، وطلبت منك مرافقتى حتى اتيقن الطراز الذى تحبه وترغب فيه .

— هل هذا ما تريد ؟

فقد أومأت الى زورق متوسط الحجم مصنوع من الاليمونيوم المذهب ، ولاحظت — لشدة دهشتى — انك كنت فاقد الحماس بشكل واضح ، فقد بدا عليك الوجوم والتفكير والحزن ، كما لو كنت تشير الى تابوت لا الى هدية ثمينة تمنيت الحصول عليها !

وذات مساء ونحن على مائدة العشاء سمعتك تقول وفى صوتك رنة الم واسى :

— من المؤكد انى لن اكون على رأس فرقتى هذا العام ، لقد خانتى الحظ فى اللغة اللاتينية .

وانفجرت امك غاضبة متوعدة :
ــ اما حذرتك مرارا ونبهتك الى أنك لاتبذل اقصى جهدك فى استيعاب الدروس ؟
ومع ذلك كنت قد اشتريت لك ذلك الزورق ، وتركته فى المتجر بعد ان وعدتهم بأنى سأخطرهم تليفونيا بالموعد والمكاناللذين سيتم فيهما التسليم .

وحينما ذهبنا الى حفل توزيع الشهادات والجوائز الذى تقيمه المدرسة آخر كل عام ، والذى اعتدت ان اشهده برفقة والدتك ـ مع قلة من الآباء يحضرونه ــ تبين أنك لم تحرز الترتيب الأول ولا الثانى ، بل أحرزت السادس !

وما زلت اذكر لحظة أن خرج ثلاثتنا من باب مدرسة الليسيه كارنو صامتين وكأن على رءوسنا الطير ، وعندئذ كنت أتلهف على أن امسك يدك . واضغط عليها مواسيا مشجعا لابعث فى نفسك شيئا من الثقة والطمأنينة ، ولكنك كنت بعيدا عنى بجسمك وقلبك ، وكانت أمك بيننا لم تنبس بحرف واحد حتى وصلنا باب بيتنا فى ميدان ماكماهون ، وعندئذ نظرت اليك بعينين ينبعث منهما الشرر :
ــ لا اظنك تفكر الآن فى الحصول على ذلك الزورق يا جان بول ؟

ولم تنبس ببنت شفة ، بل شمخت بأنفك فى الهواء ومضيت لا تلوى على شىء .
وحين انفردت بوالدتك بدات ادافع عنك . ولكنها قالت فى حزم :
ــ تستطيع أن تفعل ما يحلو لك ، فانت أبوه ، اما الأمر بالنسبة لى فهو مسألة مبدأ ، فذلك الزورق ما هو الا مكافاة كان سينالها نظير القيام بعمل ما ، وهذا ما تم التفاهم عليه بيننا وبين جان بول ، وهو الذى قد اخل من جانبه بهذا الاتفاق المبرم بيننا ، ولم يفشل فقط فى اللاتينية ، بل حصل على درجات مخجلة فى بعض المواد الاخرى . فاذا ما عودته أن فى وسعه أن ينال شيئا نظير الكسل والاهمال فلن نخلق منه رجلا يحقق النجاح بقوة ساعديه ، او يشعر

يطعم المكافاة مقابلَ الكفاح والعرقَ ، بلْ سيكون شأنك شأن الدبة التى قتلت صاحبها الذى تحبه!

وعندئذ ومرة اخرى فهمت وجهة نظرها ، وربما لم تخطىء فى ظنها او يجانبها الصواب فى صدق رايها ،ومع ذلك فقد انطلقت الى غرفتك ، حيث كنت منكبا فوق مكتبك تتظاهر بقراءة احدى الروايات ..

قلت لك بصوت خفيض :

ـ لا تبتئس فسوف تحصل على هديتك !.

فاجبتنى وانت تنظر الى نظرة تمثلت فيها الرجولة والنضج وقد خيل الى انك حزين من اجلى :

ـ لا تفعل ذلك يا ابتاه !

ـ صه!فسترى زورقك فى انتظارك حالما تصل الى اراشون!.

ـ لا ، لم اعد بحاجة اليه .

وفهمت وجهة نظرك ايضا ، اجل .. فهمتكما معـــا ، انت ووالدتك .

وظل الزورق خمسة عشر يوما ملقى فى حديقــة الفيلا التى اعتدنا استئجارها كل صيف فى اراشون دون ان تلقى عليه نظرة واحدة .

كان يؤلمك ويحز فى نفسك انك لا تستحقه .

اقول لك ذلك لان ابى اهدى الى زورقا انا الاخر ذات يوم ؟ وبالرغم من انى لم اكن جـديرا به فقد قبلته بلا تردد ، بل قـد استخدمته فى شق طريقى وسط الامواج العاتية حتى وصلت بر الامان .

ومن اجل ذلك .. انطلقت وانا فيما بين العشرين والثلاثين اقتل نفسى فى العمل الشاق دون ان اتيح لها اية فرصة للمسرات .

كان ذلك حتى اعوض ما فاتنى ، واؤكد لنفسى ـ قبل اى مخلوق آخر ـ انه لولا فضل ابى على ما استطعت ان اجلس الآن لاسطر لك هذا ، ولربما كان قد تغير وجه التاريخ بالنسبة لاسرة لافرتسوا !

الفصـــل الخامس

كنت في مثل قامتك، انما اعرض منك قليلا عند الكتفين. لأني حينما كنت في مثل قامتك ـ اكبرك بثلاثة اعوام ، واليك في ايجاز شديد ما اعرفه عن أسرتي وأسرتك .

وكبداية لحديثي وفي نظري من الاهمية بمكان أن تعرف اني لم انعم في طفولتي أو صباي بالاقامة في منزل خاص او شقة نملكها مثل باقي الأطفال ، بل في مساكن حكومية يختلف اتساع حجراتها ويتباين اثاثها وفراشها ايضا من البسيط الى الفاخر من الرياش كلما تنقل ابي من منصب لآخر ارفع شأنا .

وحين ولدت انا ـ كان أبي فيليب لافرنسوا ـ الذي لم يتجاوز التاسعة والعشرين ويحمل الدكتوراه في القانون ـ قد بدأ ـ منذ وقت وجيز ـ حياته الادارية ، وشغل منصب السكرتير العام لمحافظة « جاب » في مقاطعة الالب العليا ، ثم ـ وانا في الثالثة من عمري ـ كان وكيلا لمحافظة ميلو والافيرون ، ثم صار بعد ذلك وكيلا لمحافظة جراس حيث عرفت المدرسة لأول مرة في حياتي .

وقد تدرجت بعد ذلك بين الليسيه في مدينة بو ، ثم ليسيه فيتلون ، واخيرا في لاروشيل حيث أستقر مقامنا بها حوالى سبع سنوات متوالية ، ولعل هذه المدينة الاخيرة هي الوحيدة التي اتاح لي طول المدة ، ان اعرفها في طفولتي ، أما ما عداها واقمنا فيها من قبل فلست أذكر عنها الا ملامح خفيفة أشبه بالأطياف لقلة مقامنا بها .

ما كنت أكاد أهنأ بدار جديدة واعتادها وانظم حاجاتي ولعبي في غرفتي ، وابدأ احبها ، وآلف أساتذتي ومعلمي في المدرسة ، واتعرف الى رفاق وابدأ معهم صداقات جديدة حتى يصدر أمر نقلنا الى محافظة اخرى بمسكن حكومي جديد وغرف أخرى ووجوه تختلف تماما عما اعتدتها .

وهناك في لاروشيل تزوجت شقيقتي آرليت بيير فاشيه الذي كان كما اخبرتك سابقا رئيسا للمستخدمين في مصلحة الاشغال

العمومية ، ولم يجد العروسان الصغيران بيتا ملائما ينتقلان اليه ، أو لعلهما قد زعما ذلك رغبة فى الاقتصاد والتدبير ، فشاركانا فى الاقامة فى الطابق المخصص لسكنانا فى دار المحافظة .

واستطيع ان ازهو امامك بأبوى .

فذلك القصر القديم الكئيب الذى فتحت عينيك لترى جدك وجدتك يعيشان فيه بضاحية «لوفيسينيه» كذلك مظرهما البسيط وحياتهما الهادئة المتواضعة بعد أن بلغا من الكبر عتيا ، كل ذلك ليس كافيا حتى ترسم فى نفسك صورة كاملة عنهما .

ولن اغوص بك بعيدا فى اعماق الماضى البعيد : فى الواقع ليس أبعد من اوربان لافرنسوا جد ابى الذى عاش فى الفترة ما بين « ١٨٢٣ ـ ١٨٩٩ » ولعل من المثير ان تعرف أنه كان صديقا حميما لمشاهير العظماء ممن خلدهم التاريخ ، أمثال فكتور هوجو ومارتين وجورج صاند واسكندر دوماس الكبير ، ومازلت أحتفظ بكثير من الخطابات المتبادلة بينه وبين أولئك وغيرهم من رجال الفنون والآداب .

واذا كنت قد رأيت صورة للدوق دى مورنى فهى صورة طبق الاصل لجد ابى .

وتستطيع ان تتخيله وهو فى ثياب الامبراطورية الثانية الموشاة . وهو يتردد دائما على البلاط ، حيث كانت الامبراطورة يوجينى تميل لصحبته وتسعد بحديثه وفكاهته ومداعباته المرحة، وكان ينفق من دخله الخاص ـ شأن سراة القوم ونبلائهم فى ذلك العصر مسرفا الى حد التبذير على حساب هدم راس ماله ، ومن حسن حظ ابنائه انه كان مفتونا بهواية شراء اللوحات الزيتية التى يرسمها أصدقاؤه الرسامون ، وحين مات كانت تلك اللوحات اغلى ثمنا وارفع قيمة من الفدادين القليلة التى خلفها وراءه مثقلة بالرهون والديون .

ولقد رآه ابى فى ايامه الاخيرة ، وتأثر بما كان يعيش فيه جده من ترف وبذخ ، وسمعته يفخر امامى بان جده كان احد اعضاء نادى « الجوكى » الذى كان مجرد الانتساب اليه شرفا عظيما وفخرا كبيرا ..

وفى نظري ، وانا من جيلٍ يسبق جيلك ، انى يشق على ان اتصور حياة الفراغ التى كان يعيشها امثال هؤلاء الناس عاطلين بلا عمل ، لا شاغل لهم سوى الاغتراف من ملاذ الحياة والتمتع بمسراتها .

وكان يمتلك بيتا قرويا صغيرا من طراز القرن الثامن عشر يتوسط فناء كبيرا فى شارع دى باك ورثه جدى واقام فيه طول حياته . ولقد اخذتك ذات يوم لتراه ، اتذكر ؟ ذلك البناء الأثرى الذى يتوسطة محلا لبيع الانتيكات على اليسار ، ومكتبة قديمة الى اليمين . وله باب ضخم مدهون بالاخضر الغامق اذا دلفت منه مررت تحت قنطرة ذات اعمدة بها غرفة البواب ، ثم سرت فوق المشى الى الفناء الكبير المرصوف بالحجر المربع الملون ورأيت شجرة الليمون الكبيرة التى توسطه .

اما المنزل الذى فى الجانب البعيد والذى يبدو وكأنه عش غرام منعزل عن العيون فانى أعتقد أنه قد شيد خصيصا ليضم بين جدرانه الرقيقة الحانية محبوبة لأحد النبلاء الارستقراطيين أو ربما لأحد قادة الجيش من الجنرالات العظام الذين انحدروا من قلب الريف وعرف عنهم شدة الغيرة على من يتملكون من الغانيات ، وعلى الاخص حين تجول بين غرفه المشمسة الواسعة ذات الشرفات الكبيرة التى تحمل احواض الزهور الساحرة ، وتصل الى غرفة الجلوس ومنها الى مكتب جدى .

وخشى ، اذا ما وصفت لك جدى ارماند لافرنسوا ، ان تحسبه أحد تلك الشخصيات الهزلية التى تبعثك على الضحك . فلا بد أنك شاهدت بعض الاعداد القديمة من مجلة « الحياة الباريسية » وما اعتادت ان تبرزه بين صفحاتها من حين لآخر من الرسوم الكاريكاتورية التى تمثل « ايام زمان » : أولئك رجال مشدودو القوام شعرهم طويل ابيض ناصع ، وشواربهم كثة مصبوغة ، والمونوكل يلمع فوق أعينهم ينظرون من خلاله فى كبرياء واستعلاء ، وقد ارتدوا الصداريات ذات الذيل الطويل من الخلف والمفتوح من الأمام ، فوق سراويل حريرية ملونة ضيقة عند الركبتين !

تلك هى — باختصار — صورة جدى ، اذا اضفت اليه ان

شعر رأسه لم يكن غزيرا وقد دب صلع خفيف فى المقدمة كان يحاول جاهدا اخفاءه بتمشيط شعر الجانبين فى المنتصف!

ارستقراطى عجوز كما سمعتهم يطلقون عليه ، ماتت زوجته الشابة وتركته فى مقتبل العمر ، فمضى يسرى نفسه ويبحث عن السلوى على نطاق واسع حتى حينما بلغ السبعين كان ما يزال فيه بقية من فتوة ونشاط .

لكنه لم يكن عاطلا مثل ابيه ، فقد عكف على الدرس والتحصيل فى همة وقوة حتى حصل على اعلى الشهادات فى الاقتصاد السياسى ثم لمع نجمه وشغل ارقى المناصب فى ديوان المحاسبة .

كل ذلك قد يكون ثقيلا على نفسك ، يبعثك على السأم والملل ؟ أعرف ذلك جيدا ، ولكنى قد أخبرتك سلفا بأن ذكرى الانسان تعيش مائة عام ثم تندثر ، ولم يمض الا اقل من عشرين عاما لا غير منذ أن توفى جدى فى السنة التى تزوجت فيها ـ وقد بلغ السابعة والسبعين من عمره ، ومن ثم أجد صعوبة فى رسم صورة حية له أمام عينيك .

وما من شك فى أنه كان قليل الكلام ، جامد الوجه ، يفخر بأنه يستطيع أن يمتلك زمام عواطفه فلا تكشف ملامحه ما قد ينطبع فى نفسه من انفعالات ومشاعر ، وأذكر ذات يوم حين كنت فيما بين العاشرة والحادية عشرة من سنى حياتى ، أن غلبنى البكاء فى حضرته ، فما كان منه الا أن وضع المونوكل فوق عينه وحدجنى بنظره مقطبا حاجبيه ، ثم رمق أبى بنظرة لوم وعتاب .

أتراه كان يعانى آلام الوحدة خلال الاعوام العشرين الأخيرة من حياته ؟ فقد كان يعيش وحيدا فى عشه الصغير الا من طباخة عجوز ـ ليونتين التى خدمته طوال حياتها ـ ووصيف يدعى أميل ابن أحد الزارعين القدماء .

وكان ما ورثه عن ابيه من مال قليل قد ذاب ، كما يذوب الجليد تحت الشمس الحارة ، ولم تبق الا تلك اللوحات الزيتية ، ولم يكن ثمنها قد ارتفع بعد ، أما البيت الذى يقيم فيه فى شارع دى باك فقد كان مثقلا بالرهون ، تستغرقه الديون الى آخر مليم من ثمنه !

ومع ذلك ، فقد استطاع أن يحتفظ بكرامته وكبريائه الى آخر لحظات حياته ، ومن بينها السنوات الثلاث الأخيرة التى قضاها فوق مقعد متحرك على عجل .

هل كان يعلم بما حدث فى عام ١٩٢٨ ؟ لا ادرى ! بيد انى متيقن من ان ابى لم يذكر له شيئا اطلاقا وبرغم ذلك فاكاد أقسم انه حدس وشعر ، وحملنى كل التبعات والقى على اللوم ، فقد تغيرت نظرته نحوى ، واتخذت طابعا من البرود وعدم الاكتراث الشديد .

وكان يحمل هو أيضا ـ مثل السيد مدير شركة التأمين ـ وسام الشرف من طبقة فارس ، كما كان يحوز فى الوقت نفسه عددا من القلادات والنياشين التى منحته اياها كثير من الدول الاخرى ، التى انتدبه اليها لاستشارته فى امور المال والاقتصاد .

والشباب يا ولدى كثيرا ما يخدعون فى امثال هؤلاء ممن يرتدون قناعا فوق وجوههم ، يكرهونهم قبل أن يحاولوا النفاذ الى ما وراء ذلك فيصلوا الى القلب الأبيض الممتلىء طيبة وحبا .

اما وقد مضى سبعة عشر عاما على وفاته ، فانا اشعر بالاسف لانى لم أوجه اليه أسئلة معينة فلا شك فى انه وقد حنكته التجارب والايام ، ورأى كثيرا من صنوف الناس والحياة لا شك فى انه كان على ذكاء كبير وتفكير عميق ، وكان فى وسعه ان يقود نفسى الضالة الحائرة الى بر السلامة والامان ويجيب عن أسئلتى !

وربما كنت مخطئا فى اوهامى فما من والد الا ويتمنى لو استطاع أن يفرغ عصارة قلبه وخلاصة تجاربه فى عقل ولده حتى يحميه ويؤمنه على مستقبله من مفاجآت الزمن واحداثه ، ولولا ما ورثته ايانا الأجيال الماضية من ينابيع الحكمة والمعرفة التى حمل اجدادنا مشعلها منذ آلاف السنين ، وتناقلتها السواعد الفتية من جيل الى جيل ما قامت على أرضنا مدينة ولا حضارة ، ولظللنا نقيم فى اغوار الكهوف واعماق الجبال !

كان الفارق بين جدى وجدك كبيرا ، انه الفارق بين ذلك العش الصغير الجميل بشارع دى باك والذى لم يعد لنا منذ امد طويل ، وسوف يهدمونه ليقيموا مكانه دورا حديثة ـ وبين فيلا ماجالى ! بل انه الفارق بين ذكريات طفولتى وذكريات طفولتك !

كنت أجد جدى جامد القلب بارد العاطفة .

كذلك لا بد انك رايت فى ابى قطعة اثرية مهملة ، نسج عليهـا عنكبوت النسيان خيوطه فى ظلال تلك الحياة المملة فى فيلا ماجالى، وهنا اختلف انا معك ، فهو فى نظرى - لا لانه ابى ، بل للحقيقـة والتاريخ - هو فى نظرى المثل الاعلى فى الوفاء والحب والتضحية، لم يفكر فى عدم الوفاء لزوجته المريضة ونذر نفســه لرعايتهـا فى ايمان واخلاص حتى لفظت آخر انفاسها راضية سعيدة .

ولانهما لم يظهـرا الا على هامش حياتنـا فقط ، ولم تتوطد صلاتنا بهما لبعد الشقة بيننا وبينهما ، باعتبارهما جيلا ثانيــا بالنسبة لى ولك فنحن لا نراهما الا اشباحا غير واضحة ،وخطوطا باهتة لا تثير فينا شديد اهتمام . دون ان نتذكر ان كلا منهما لا بد قد كان ، فى ايام عزه وعنفوانه ، نجما يلمع فى السماء ، وتتركز عليه الاضواء .

وربما حين تجلس بين ابنائك وحفدتك ذات يوم وتستعيد معهم ذكريات الماضى .. تحب ان تذكر لهم شيئا عن جدك الثانى - والد أمى لوســيان ايفارد - الذى لا شك انك قد قــرات عنه فى دراساتك . فقد كان رجلا ذا اهمية كبيرة فى المجتمع الدولى .

فبينما كان جدى لافرنسوا قد نجح فى شق طريقه فى السلك الادارى تحت ظل الجمهورية ، كان جدى ايفارد يلعب دورا هاما فى السياسة الدولية حينما كانت وظيفة السفير اعظم مناصب الدولة على الاطلاق .

اتعلم ان امى لم تهنأ قط بالاقامة فى منزل دائم منذ ولدت الى ان اقامت فى فيلا ماجالى بضاحية لوفيسينيه ؟ فلقد كانت تتنقل من سفارة لأخرى فى عواصم الدنيا ، ثم بعد أن تزوجت ابى ظلت تتنقل معه بين مختلف المحافظات الفرنسية منذ أن احتل فى شبابه منصب السكرتير العام حتى غدا محافظا مرهوب الاسم والجانب فلقد ولدت امك فى بكين - وتعلمت القراءة فى احد اديرة بيونس ايرس قبل ان تذهب الى استوكهولم وروما ثم برلين .

وكذلك كانت أمها من قبل . ولدت على أرض أجنبية ، وكان اسمها (كونسويلو كافيز) ابنة وزير كوبا المفوض فى لندن ، وهناك تقابلت مع جدى فى احدى الحفلات الدبلوماسية حين كان يعمل سكرتيرا لسفارتنا .

وانتى ـ مثلك يا ولدى ـ اكاد أكون خالى الذهن تماما عن ذلك الطراز من الحياة التى لم تشهدها عيناى والتى لا شك فى انه قد اصابها كثير من التعديل منذ تلك السنين الماضية حتى الآن .

واذكر انى قرات ذات يوم مذكرات جدى لوسيان آبمارد وهو مجلد كبير من جزاين طبعه أحد كبار الناشرين فى ا فوبورج سان جرمان) ، وأطرف ما فيه ذلك الباب الذى يضع فيه الحلول لمشكلات الشرق الاوسط ، وكذا الجزء الذى يلقى فيــــه كثيرا ومزيدا من الاضواء على سياسة الداهية بسمارك فى الملاحة لمسالة دول امريكا اللاتينية مما يؤكد عمق تفكير جدى واهمية الدور الذى لعبه على مسرح السياسة الدولية ، ولقد وقفت طويلا عند تلك الفقرة التى يقول فيها :

« كانت لنا مصادرنا الأمينـــة الخاصة التى تزودنا بالحقـــائق المجردة الخطيرة ، وتمدنا بسيل لا ينتهى مما يدور خلف الكواليس وبين ردهات القصور وجدران المكاتب الصماء التى يقف على أبوابها الحراس المدججون بالسلاح من احاديث سرية حتى لا نفاجأ فى اى وقت بما ليس فى الحسبان . ولقد كان من واجبنا ان نبتسم فى وجوه الد أعدائنا : نظهر خلاف ما نبطن ، ونضحك ملء أفواهنـــا فى أشد الأزمات وأحرج الاوقات ، ونقيم حفلات الاستقبـــال . وهناك بين الرقصات وكئوس الشراب وغمزات الأعين ورنين القبـــلات وعبارات المجاملة والترحيب ، تحاك أخطر المؤامرات السرية ممزوجة بقصص الحب والهيام ! » .

ولم تكن أمى وشقيقاتها ـ بحكم اختلاطهن ـ غارقات لآذانهن فى تلك الحياة الصــاخبة فحسب ، بل كانت ـ جدتك ـ تلعب أهم الادوار والمعها على مسرح السياسة العالمية فى عصر فيه كثير من العروش الضخمة على الزوال والانهيار ، ولم تكن اسماء ادوارد السابع وليوبولد الثانى والقيصر أو الارشيدوق العظيم بالنسبة لها

مجرد أسماء تتردد فى الصحف أو بين كتب التاريخ ، بل مخلوقات من لحم ودم كثيرا ما ظهرت اسماءهم من بين طالبى مراقصاتها .

ومن المؤكد ان جمالها كان فاتنا ، ولوحتها الباستيل المعلقة على جدار غرفة مكتبى تشهد بذلك ، ولكن اهم ما كانت تتميز به هو روحها المرحة وجراتها المذهلة ، مما جعلها المع واشهر نجوم المجتمع فى ذلك العصر ، وكان ذلك منها امرا شاذا غير مألوف بالنسبة لعادات وتقاليد تلك الايام ، التى كانت تتسم بكثير من التحفظ وخاصة بالنسبة للنساء .

وكانت فى الثامنة والعشرين من عمرها ، عندما شغل ابوها منصبا خطيرا فى وزارة الخارجية ، وفى تلك الايام جمعها القدر مع ابى الذى كان يكبرها باربعة اعوام .

وكانت شقيقاتها جميعهن قد تزوجن وقرن فى بيوتهن ماعداها وعرف الناس جميعا انها لن تتزوج ابدا لانها فتاة طائشة جموح تملكها الغرور ، ولن يقدر احد على كبح جمالها ، وانها لن تسلم قيادها او قلبها لاى انسان !

ثم وقعت تلك الحادثة المؤسفة والتى اخبرتنى بها شقيقتى ، ولست ادرى من اين علمت بها وعن اى طريق ؟ فمن الثابت ان احدا لم يذكرها على لسانه قط فى بيتنا .

كانت المبارزات شيئا نادرا فى عام ١٩٠٣ بل حرمها كثير من القوانين ، وان وقعت فى بعض الظروف فبنسبة اقل بكثير مما اعتاده الناس فى اواخر القرن الماضى حين كان المسدس والسيف او الخنجر هو اسهل الحلول لكل المشاكل مهما اختلفت انواعها بين افراد الطبقات النبيلة .

وفى تلك السنة لقى احد من تعرفهم ـ امى وهو كونت ايطالى ـ حتفه فى مبارزة بالسيف ، واكبر ظنى ان المسالة بدات فى ملهى مكسيم ، وفى احدى السهرات الصاخبة حين مضى احدهم يلقى بعض الفكاهات اللاذعة التى تمس سيرة ابنه السفير آيفارد وكان المتحدث احد نبلاء دول البلطيق .

وشهدت غابة (ميودو) فى ساعة مبكرة ذات صباح ، مبارزة لم تستغرق سوى دقائق ، التحم فيها سيفان ، ثم كانت الخاتمة

السريعة حينما طعن النبيل البلطيقى ـ غريمـه للكونت الايطـالى طعنة نجلاء مات على اثرها ، واضطر ان يغادر باريس على عجل ، وظل محروما من رؤية ابوابها حتى بعد الحرب العالمية الاولى .

اما فى ايطاليا فقد اعلن الحداد على الضحية المسكينة ، وكان لقتله صدى كبير ، ولست ادرى هل الأسرتان مازالتـــا تحتفظان بذكرى ذلك الحادث الاليم ؟ وهل ترى يقص العجائز والشيوخ على اولادهم وحفدتهم فى ليالى الشتاء قصة جدتك والدور الذى لعبته بطريق غير مباشر فى حياتهما ؟.

ولعلك سمعت امك ـ حين يثور بيننا نقاش لسبب ما يخرجها عن طورها ـ وهى تهتف فى حدة :

ـ اراك تـــداوم على تســـفيه آرائى لانى لسـت من اسرة لافرنسوا !

او تحدجك ببصرها ـ فى بعض الظروف ـ حين تشمخ بأنفك فى وجهها عزة وكبرياء ، فتقـول لك غاضــبة : ـ حقا انك لمن اسرة لافرنسوا !

فمهما حاولت لن تستطيع ان تنسى انها انحدرت من قوم بسطاء لم يكن لهم شأن كبير فى المجتمـع ، ومن ثم فهى تكن لى ـ بدون قصـد فى اعماق لاشعورها الباطنى ـ ضغينة خفية ، تطفـــو فى المناسبات غير السارة فتبعث فيها اعتقاداً بانى ازدريها لذلـك السبب برغم انى ـ واؤكد لك ذلك ـ لا اعير هـــذا الأمـر ادنى اهتمام . وذلك الحسب والنسب الذى يقف دائما شبحا بيننا ـ انا نفسى ـ اود من اعماق قلبى لو انساه ولا فضل لى فيه !.

وليس ثمة شك فى ان اى زواج لايعنى مجرد ارتباط شخصين لا غير ، بل هو فى الحقيقة اندماج أسرتين وعشيرتين لـكل منهما تاريخها واخلاقها وطباعها ونظام حياتها ، ولابد من حدوث اصطدام بينهما ليتم التمازج المطلوب ، ولابد من ان يتغلب الطرف القـــوى منهما على الضعيف ، فيسير فى ركابه ، ومن ثم تتراجع العشيرة الضعيفة بين الظلال ولاتلبث حتى تختفى فى زوايا الاهمال والنسيان ولكن بعد ان يتخلف عن ذلك الصراع الخفى شعور بالمرارة ثم يزول بمضى الاجيال .

ولم اكن اعرف ذلك ، ونحن فى مدينة كان ؛ بل ولم افكر فيه بتاتا ، واستطيع ان اعترف صراحة بانى ادركت ذلك للمرة الاولى ؛ وشعرت بانى سليل اسرة لافرنسوا واحمل اسمها ، حين ولدت انت ، وصفعتنى الحقيقة التى لامفر منها من انه سيكون لى وريث يحمل اسمى واسم الاسرة من بعدى !.

ولم تكن الهوة التى تفصل بين ابى وامى بمثل اتساعها بينى وبين امك ، كان الاولان من «عالم» واحـــد ، بينهما تكافؤ فى المركـز الاجتماعى ، وكلاهما كان يبرز اسمه فى عمود الاجتماعيات اليومى بالصحف السيارة من امثال «الجولوا » والفيجارو ، باعتبـــارهما من البارزين واللامعين فى المجتمع الذى تهتم الطبقات الاخرى بتتبع انبائه .

كانت هناك بعض الفوارق الهينة ــ بلا ريب ــ وكان آيفارد قد انفق جزءا كبيرا من ثروته وتضاءل رصيده عن ذى قبل ، وخاصة بعد ان زوج اربعا من بناته ودفع لكل منهن دوطة كبيرة تناسب مقامه كسفير معروف ، لكنه مع ذلك ظل محتفظا بمركزه ومهابتـه فى نظر الخاصة والعامة فى الوقت الذى كان فيه لافرنسوا العزب يمثل الطبقة الارستقراطية القديمة بثيابه التقليدية المضحكة .. ونفخته الكاذبة .

وكان ابى ــ بعد ان انتهى من دراساته فى القانون ــ قد اختار لنفسه الانخراط فى سلك الوظائف الادارية داخل فرنسا ، لاشباع هواية خاصة فى نفسه وكان فى استطاعته لو اراد ان يشغل وظيفة ممتازة فى الخارج.

وشاءت المقادير أن يتقابل هو وامى فى احدى الحفلات الرسمية الراقصة ، ولم يكن قد مضى على تلك المبارزة وقت طويل ، ومازال صداها يتردد فى كل مكان ، فأحبها .

ارايت اذن لماذا طلبت منك ان تتانى قبل ان تتعجل فى حكمك على ظاهر الاشياء ؟ فتلك العجوز البدينة المتورمة التى لم ترها قط الا غارقة ساكنة فى مقعدها الكبير ، عيناها مشدودتان للامام فى نظرات شاردة ساهمة ، كانت فى عصرها اجمل واذكى بنات باريس واحدهن لسانا ، بل اشهر من نار على علم ! .

واعتقد أن أبى ـ الذى كان يصغرها بأربعة اعوام وهو فارق لايستهان به فى تلك المرحلة من العمر وكان قد تخرج لتوه من الجامعة ـ لم يكن شديد الاعجاب بها فحسب ، بل بأبيها أيضا .

فقد كان لها ـ برغم تجاوزها فترة البلوغ ـ مئات من المعجبين ممن هم المع مستقبلا من ابى ، يتهالكون تحت اقدامها ويلتمسون رضاها ! .

وصارحني ابى ذات يوم قائلا :

اوشكت أن أقبل العمل فى السلك السياسى خارج الجمهورية اعتقادا منى انه قد يرضى امك . .

فهل كانت قد سئمت السفر والترحال بين مختلف الممالك والدول ؟ ربما ! ولا تنس انها كانت تنعم فى تلك الفترة بمتعة الاستقرار فى فرنسا واكتشفت ذلك لاول مرة فى حياتها .

وكانت فيلاماجالى ـ هى قصر آل أيفارد الريفى ، وهناك كان ابى يزور خطيبته ايام الآحاد .

وكان ابى جميل الشكل أنيق الهندام قوى البنية ممشوق القوام . اذا قلت انه ورث الجسم والعقل عن آبائه واجداده لم اكن مبالغا . وقد ظل محتفظا بكل ذلك حتى بعد أن بلغ من العمر عتيا ! .

وما أريد ان أوضحه ، هو انه كان قد استهواه بريق منصب السفير ومركزه الاجتماعى العظيم ، كما تاق الى دخول ميدان السمعة واقتحام قلب والدتك ، ذلك الحصن المنيع الذى استعصى على مهاجميه ممن هم اقوى واخطر شأنا منه . .

وربما كان قليل الامل فى الفوز بيدها اعتقادا بأنه غير جدير بها أو كفء لها ، وظل يحلم بقربها حلم الظمآن للماء ، وكان امتنانه لها كبيرا حينما قبلت أن تكون شريكة حياته دون الناس أجمعين ، واعتبر ذلك نزولا منها وتضحية عظيمة لايستحقها .

هل كانت تشجع بنفسها ذلك الشعور فيه ، لست فى موقف يسمح لى بالاجابة عن ذلك ، وليست لدى المعلومات الكافية حتى أستطيع . واصارحك الحق ، فانا اعتقد يقينا أنها كانت تشعر بالمتعة حينما تلمس فيه اعترافا بالجميل الذى طوقت عنقه به . . وهى التى عاشت طول حياتها تملأ أذنيها عبارات الاطراء والاعجاب

بجمالها من اكثر من مليونير كان مســـتعدا لأن يلقى بثروته تحت اقدامها لأول اشارة أو نظرة رضاء ، وانتهى بها المطاف لأن تفضل عليهم شابا تكبله قيود الوظيفة ، محدود الدخل ، تنتقل معــه فى مساكن المحافظات الحكومية الرطبة .. وتضطر للانصات الى ثرثرة عجائز الفلاحات وزوجات الزارعين والموظفين بعد ان كانت نجمة تسطع تحت اضواء ثريات الحفلات الدبلوماسية ترمقها العيون فى حسد واعجاب ، حياة غريبة صغيرة تختلف تماما عما اعتادتها .

ومازلت اذكرها وهى فى قمة جمالها ، كانت رائعة حقا كأنها فينوس ، بل ان جمال امك ليبدو متواضعا بسيطا بالنسبة لها .

ولقد انجبت اختى اولا ، وبعد ذلك باربعـــة اعوام انجبتنى ، وحينما بلغت الثانية عشرة من عمــــرى وكنا قـــد انتقلنا لمدينة « لاروشيل » أصيبت بذلك المرض الخبيث الذى هدم سعادة أبى وحطم آماله !.

كانت فى الخامسة والاربعين وقت ذاك .. وتشهد اللوحات التى رسمت لها فى ذلك الحين ، بان الزمن لم يترك اى اثر فى وجهها وظلت محتفظة بفتنتها وجمالها ، ومازلت اتذكر انى فى طفــولتى، كثيرا ماكنت اندس بين ذراعيها واحوط رقبتها بســـاعدى قائلا:

ـ ما اجملك !.

وكنت اقول لرفاق طفولتى مفاخرا :

ـ امى اجمل امراة فى الوجود .

فهل اصابتها عين الحسد ، أو لعل نشاطها وحيويتها الـ دفقة قد احدثت خللاً ما فى جسمها القوى ؟.

ومهما كان الامر ، فقد شعرت ذات يوم بالحمل ، ولابد انهـا لم تكن تتوقع حدوث ذلك مرة اخرى ، الامر الذى اثار الشـــك فى نفســها .

وانطلقت لزيارة الطبيب وقد ارتسمت على شفتيها ابتســـامتها المشرقة ، لعلها كانت تخفى مافى نفســها من قلق ، بيد انها حينما عادت الى البيت كانت كانما قد هبط قناع مخيف على وجهها .

وما زلت أستعيد فى نفسى ذكريات ذلك اليوم ، كان يوم الخميس

من أكتوبر ، ولم يكن عندنا مدرسة فى ذلك اليوم ، فالحفت عليها ارجوها أن تأخذنى معها فقالت :

ـ ليست زيارة الأطباء مما يبعث السرور فى النفس .

وكان رجلا طويل القامة جدا ذا شارب كث صغير ورأس بيضاوى مستطيل ، كثيرا ماشاهدته فى حفلات الاستقبال بدار المحافظة..
كانت قد خرجت فى الثالثة ، وحتى الرابعة مساء لم تكن قد عادت ، وتحدث أبى من مكتبه فى التليفون يسأل عنها .
ـ هل عادت ماما ؟.
ـ لم تعد بعد .
وكرر الاتصال والسؤال عنها بعد ذلك مرتين او ثلاثا ، ولم اكن أعلم وقتئذ انهما كانا يتوقعان انجاب طفل ثالث ، أخ أو أخت جديدة ، وكانت عمتك آرليت فى الخامسة عشرة من عمرها ... تستقبل بعض صديقاتها البنات فى غرفة الجلوس .

واذكر حينما عادت امى وطبعت على جبينى ابتسامة شاردة،انها لم تكن وقتئذ على ما يرام ، فسألتها وأنا أرنو الى وجهها العابس:
ـ ماذا قال ؟ امريضة أنت ؟.
ـ لاتشغل بالك ، أشعر بتعب بسيط .
ـ لقد اتصل ابى عدة مرات يسأل عنك ..
فابتسمت ورفعت المسماع .
ـ فيليب ؟. هأنذا قد عدت .
ويبدو أنه وجه اليها سؤالا ، اجابت عليه بضحكة قصيرة مغتصبة .
ـ كلا ، ليس ماتوقعناه ، اتشعر بخيبة الأمل ؟
ولابد انه قد وجه اليها سؤالا آخر ، فقد اجابته فى عجلة :

ـ سوف أقول لك حينما تعود ، ان الين يقف بجوارى ، لا ، لا ، ليس الأمر خطيرا فيما اعتقد .

وفاجأتهما بعد ذلك يتهامسان فى احد الأركان ، وكان الوجوم يخيم علينا فى العشاء ، وارسلونى لفراشى مبكرا على غير العادة ذلك المساء .

ولم يدر بخلدى وقتئذ انى اوشك ان افقد امى ، او على الاقل امى كما كنت اعرفها ، وان ابى كان على وشـك ان يفقـد شريكة حياته .

وفى السابع والعشرين من اكتوبر – وهو تاريخ لن انســاه وسيظل محفورا فى قلبى – انتقلت الى احدى المصحات المحليــة، بعد ان قبلت أختى وقبلتنى ، وودعتنا باحدى مداعباتها وفكاهاتها.

ولم يكن ما ظنوه حملا فى بادىء الأمر الا ورما خبيثا وحينما عادت بعد أسبوعين لم يكن قد بدا عليها شىء ظاهر حتى خـدعنا جميعا ومضينا نتساءل عن سبب ذهابها للمصحة ، كانت قدعادت لطبيعتها وراحت تتحرك فى نشاط بين ارجاء البيت كسابق عهدنا بها . ولكنا بعد مضى فترة من الوقت بدأنا نلاحظ تغييرا واضـحا يطرأ على ملامحها ، فقد ظهرت التجاعيد فجأة فى وجهها ، وبـدا على جسمها الرشيق بعض البدانة والترهل .
واذكر أنها كانت تقول فى تلك الفترة :

– اعلم انه ينبغى ان اقوم ببعض التمرينات الرياضية ، ولكنى لا اشعر بأى حماس .
واجريت لها جراحة أخرى فى مارس ، وفى اغسطس كانت قد صارت من البدانة بحيث لم يعد أى ثوب من ثيابها يدخـل فى جسمها .

ومنذ ذلك الحين وانا لا اكف عن بحث حالتها مع أصـدقائى الأطباء وخاصة مع كبار الاخصائيين الذين يعملون فى المؤسسة معى ، واختلفت آراؤهم جميعا ، كل منهم يعتقد انه عرف نوع المرض وسببه دون ان يصلوا الى قرار حاسم . ولكنهم اجمعوا على ان تلك البدانة كان محتما حدوثها عقب الجراحتين اللتين اجريتا لها ،وقد اثرتا على وظيفتها الجنسـية كامرأة ، الأمر الذى كانت نتيجتـه الطبيعية انهيار مفاجىء فى اعصابها ويأس مرير فى أعماق قلبها.

ومع ذلك كله فلم اجد فيه مايقنعنى ، واشعر انه لم يكن كافيا لاقناع ابى ، واذا كان قد وصل بطريق الحدس والظن الى ماوصلت انا اليه فلابد انه كان مثال الشجاعة والاخلاص والوفاء اذ ظل الى

بجوارها مضحيا براحته وسعادته وحقوقه كزوج طوال تلك الاعوام التى انقضت حتى ودعها الوداع الاخير

وحانت اللحظة التى اضطرت فيها للاستسلام ، ولم نجد مفرا من ان تنسحب برضائها من الحياة العامة .

وقال أول من جاء من الأطباء لزيارتنا زيارة مفاجئة ، فقد كانت ترفض دعوة اى منهم لفحصها :

ـ نورستانيا سوف تشفى منها بمضى الوقت .

ولكنها لم تشف قط بل مضت حالتها تزداد سوءا ، وراحت في الأسابيع الأولى تنفرد بنفسها تدفن نفسها بين جدران غرفتها لا تكلم احدا أو تخاطب انسيا .

ومن ذلك تدرك ياولدى ان الشيخوخة وحدها لم تكن هى سبب تلك النظرات الشاردة الخالية من معانى الفهم والحيـــاة ، والتى روعتك وأخافتك منها ، فقد سبقتك انا ومررت بنفس تجربتك ولم اكن قد تجاوزت سنك الآن ، وكانت قد انزوت عنا بعيدا فى عالم خاص بها ، وفقدت كل أهتمام بنا أو باى شىء حولها .

وليس من حقى ان احكم لها او عليها ، بل لست املك الصلاحية التى تؤهلنى لان أكون قاضيا ، بيد انى مازلت اذكر كيف كانت تتملكنى الحيرة ويستبد بى الغضب وأنا المح اصدقاء ابى من كبار الأطباء يقطبون جباههم ، وهم يبدون شديد تأثرهم وعمق مواساتهم لنا جميعا .

وفى اعتقادى ، انه قد ساءها ـ وهى التى كانت محط انظار الرجال ـ أن تفقد عرش الجمال الذى تربعت عليه طويلا . وربما اشتد بها اليأس الى حد الرغبة فى ان تلاقى الردى حينما اكتشفت ان بعض الجراح قد حكم عليها بالشيخوخة المفاجئة قبل الاوان لست أدرى تماما .

***

نفضت يديها من كل شئون الدار ، ولم تعـــد تلقى أوامرها وتعليماتها للخدم ، وكنت المح ابى وهو يعد قائمة الطعام مع الطباخة كل صباح وقبل أن ينطلق لمكتبه ، وكانت تحضر فى بعض الاحايين بعض المآدب الرسمية ، تجلس فى صمت وفى وجهها نظرة شاردة

بلهاء ، وعلى شفتيها ابتسامة غريبة لا معنى لها ، وكان ابى - فى الايام الأولى - يضطر للاعتذار بمرضها الى مدعويه .

ومن أجلها - رفض الذهاب الى فرساى - حينما عرض عليه ليشغل منصبا خطيرا كان سيتوج مستقبله العظيم ، منصب مدير البوليس فى باريس !

ولكنى اسارع فاقرر لك ، انها لم تكن مسئولة قط عن تركه منصبه الحكومى واعتزاله الحياة فى ضاحية « لوفيسينيه » بين جدران ڤيلا ماجالى .

كنت انا وحدى المسئول عن ذلك ، ولم يكن لأمى اى ذنب أو يد فيما حدث أو ترتب عليه .

كان ذلك بسبب مأساة ١٩٢٨ التى اتحمل مسئوليتها كاملة .

***

وربما كان من واجبى ان اشير الى وجهة نظر شقيقتى فى تلك الحالة الغريبة التى اصابت امنا ، فهى تزعم انها تعرف من اسرار عائلتنا اكثر منى ، ولا اجد مفرا من ان اعترف لهــا بذلك ، فهى بوصفها كانت تكبرنى سنا قد كان لها من الرشد ما اتاح لهــا ان تعرف امى خيرا منى ، وقبل ان يطرأ عليها ما أصابها أو لعلها فى اثناء وجودها بباريس قد عرفت ما لم يصل الى اذنى .

حسنا ، انها تقول - تحت مسئوليتها - ان امى لم تتزوج ابى قط لانها شعرت نحوه بحب او ميل اليه .. بل لان قلبها كان قد تحطم اخيرا على صخرة غرام فاشل اطاش صــوابها ، فاندفعت بدون تفكير تلتمس اليابسة ، اية يابسة تعــرض لها بين الانوار ، وهكذا اقتنصها ابى ، وبرغبتها ابتعدت عن باريس مهــد الحب والجمال منزوية عن الاضواء ، كما تفعل اية راهبة حينمــا تدفن نفسها باختيارها فى احد الاديرة البعيدة عن العمران !

- اما تستطيع ان تقدر مدى التضحية التى اقدمت عليها حين تركت الحياة فى باريس حيث الحفلات والســهرات وحيــاة السفارات ، لتدفن نفسها فى احدى محافظــات الريف مع موظف

صغير ؟ انها لم تتزوجه املا فى مستقبل زاهر مشرق ، بل تزوجته هربا من ماض مكروه ، ومما يؤكد لك ذلك انها حينما خطبها ابى لم يكن قد حدد بعد مستقبله وميدان عمله ، وكان فى وسعه ان يشغل وظيفة ممتازة فى وزارة الخارجية او على الاقل منصبا ثابتا محترما فى العاصمة باريس نفسها ، لكنها أصرت على ان يقبل تلك الوظيفة الادارية فى المحافظات ، حيث تنتقل من محافظة لاخرى فى أعماق الريف ، وكانما هى تتعمد الانتقام من نفسها !

وحينما بدات أحتج معارضا استطردت تقول :

ـ لم تكن وقت ذاك الا طفلا صغيرا ، تنظر الى الامور فى سذاجة وبراءة بلا دهاء او عمق فى التفكير ، لم تذهب قط الى المآدب والحفلات التى كان يقيمها ابواك فى دار المحافظة ، حتى ترى كيف كانت تبدو مشحونة الطاقة ، لكنها طاقة مصطنعة ، ومرح مفتعل يخفى خلفه مرارة مدفونة فى اعماق قلبها ، كانت تمثل دور المضيفة السعيدة التى تطير بشرا وسرورا امام طائفة من العجائز الثرثارات وبناتهن العوانس ممن فاتهن قطار الزواج ! الا تدرك اذن انها كانت تسخر منهن فى اعماقها ومن نفسها ايضا ؟

ربما كان ذلك صحيحا ، بيد انى اعتقد ـ وأبحث عن وسيلة فى نفسى حتى اعتقد ـ انها كانت تحب ابى برغم كل ما سمعت .

اما هو فقد كان شاكرا لها ـ مدى حياته ـ اختيارها وتفضيلها اياه دون سائر المعجبين بها وكان يعتبر نفسه مسئولا عن توفير كل اسباب السعادة لها ، ويرى ـ والحزن يقطع نياط قلبه ـ انه سبب ما اصابها من مرض وخبل !

وارجو الا يكون هذا غير مفهوم لك ، اذا قرأته قبل ان تتسلح بالتجربة والايمان ، بيد ان هناك من الحقائق ما قد تبدو عسيرة الهضم ، ثقيلة التفسير والفهم ، وقديما كان هناك بوسيس وفيلمون الافريقى او ناعسة وزوجها ايوب المصرى : بوسيس او ايوب يسقط صريع المرض ، ويتورم جسمه ويمتلىء بالبثور وما تحت جلده الباهت بالماء العفن ، ويبدو كجيفة كريهة المنظر والرائحة تشمئز

منه الناس الا حبيبته فيلمون الاغريقية ، او ناعسة المصرية،لضحى كل باعز ما تملك فى سبيل ارضائه ورعايته وتمريضه !

كذلك قررت لى شقيقتى ـ فى صيغة التأكيد ـ ان امى لم تحبنا قط . لا انا ولا شقيقتى ، وكنا فى نظرها شرين لابد منهما ؛ ضاعف من رباطها بالرجل الذى لم تشعر نحوه باى حب !

واكاد أميل الى الاخذ بوجهة نظرها حينما اتلفت حولى فيما يحيط بى ، فابدأ ارتاب بدورى فى احتمال ان الحب الاموى حقيقة قائمة فى قلب كل أم ! لا أنكر انها عاطفة غريزية موجودة فعلا ،ومع ذلك فاننى اقطع بأن كثيرا من الامهات لا يشعرن به ابدا ، او ربما لفترة بسيطة مثل ام الحيوان حتى ينتهى دور الفطام ! .

والعهد ليس ببعيد على تلك القضية التى شغلت الراى العام واثارت سخطا شعبيا اشبه بالعاصفة المدمرة ، امراة ما تزال فى عمر الزهور قرر جميع علماء النفس انها فى حالة عقلية طبيعية ومسئولة تماما عن كل تصرفاتها ، قتلت وحيدها الذى لم يتجاوز الثالثة من سنى حياته ، لا لسبب سوى أن محبا لها تحداها ان تفعل ذلك لتبرهن على شدة حبها له !

ولعل مما اثار عاصفة السخط والدهشة فى نفوس الناس ، هو ندرة وقوع أمثال تلك الحوادث ، حتى فى حال وقوعها فنحن ـ لأننا نتبع مقاييس اخلاقية معينة ـ ننظر الى الجانية باعتبارها اما مجنونة فقدت عقلها ، او سفاحة مصاصة للدماء !

ثم الم نفتح اعيننا فجأة لنكتشف خداع اوهام طفولتنا حينما نكتشف حقيقة العلاقة التى تربط بين آبائنا وامهاتنا ، وندرك انها ليست بتلك الطهارة المثالية الملائكية التى تخيلناها فى احلامنا وقرأنا عنها فى القصص الخرافية الصغيرة ؟

لقد لاحظت ذلك بنفسى حينما رايتك تنكمش وتحجم عن تقبيل امك أو دخول غرفة نومنا وانت بعد صغير جدا ، كنت اعرف مدى ما وصلت اليه اكتشافاتك وان لم يظهر ذلك على وجهك ، لان الطفولة البريئة والخجل الغريزى صنوان لا يفترقان !

الفصل السادس

واخيرا قد أزفت اللحظة الحاسمة حيث لا أجد مفرا من ان احدثك عن صديقى « نيكولاس » وايام طفولتى التى يعتبر ذلك الاسم مرتبطا بها ايما ارتباط ، بل رمزا وعلما عليها ، ولسوف يساعدك ذلك على فهم بعض تصرفاتى ازاءك ، وتبرير كثير من الاسئلة التى كنت أوجهها اليك والتى طالما اثارت غضبك !

ــ هل تعرفت بصديق جديد ؟.

كانت ظنونى تصدق كلها دون حاجة لان ازعم فى نفسى السحر او التنجيم ! فحينما تبدأ فى استعمال اشارات يبدك جديدة عليك ، أو تعبيرات ومصطلحات لم تكن تعرفها او تغير شيئا من مظهرك : طريقتك فى تنسيق شعرك أو عقدك رباط رقبتك مثلا ــ افهم انا فى الحال ان عنصرا جديدا قد دخل فى اطار حياتك . وربما اغاظك انى كشفت ذلك الطارىء الجديد عليك ، الأمر الذى يفهم منه انك ضعيف الشخصية ، سريع التأثر بالغير برغم أنى كنت احاول قدر جهدى ان اكيف اسئلتى فى لباقة وبطريق المداعبة كما يفعل الاصدقاء وبلهجة رقيقة هينة حتى لا أهيج شعورك أو اثير انتباهك .

وعلى عكس ذلك تماما ، كانت تفعل والدتك . فهى اجرأ منى واحد لسانا ، لأنها تعتنق مبادىء مستقيمة صريحة فى التمييز بين الصواب والخطأ ، وفيما ينفعك او يضرك ، ولا تؤمن بالاشياء الوسط ابدا ، ومن ثم فهى ترى أن من حقها عليك أن تختار بنفسها اصدقاءك .

وهى لا تكف ابدا من اتهامى بأنى اتخاذل فى اداء واجباتى الأبوية حيالك بترك حبل العنان لك ، وانى لأرجو من كل قلبى الا تقودك قدماك فتقع فى مأزق يهدد مستقبلك ، حتى لا الوم نفسى واحملها تبعة ذلك .

ولا اخفى عنك انى اخشى ذلك اليوم ، بل ان مجرد التفكير فيه يقلق منامى ويزعج احلامى ، وكلما صلب عودك واشتد ساعدك وطالت قامتك اشتد خوفى عليك ، ولا احسب الان كل الآباء فى مثل

حالتى : اكبادهم تسعى على الارض ومع ذلك فربما كنت اكثرهم حساسية .

ومهما كان الأمر فلو كانت امك مكان ابوى ما استطاعت ان تحول دون نمو صداقتى بنيكولاس ، ولا اذكر لقبه لاسباب سوف تعرفها فيما بعد .

وقد تعرفت به بحكم الزمالة — وانا فى ليسيه لاروشيل — حين كنا فى الفرقة الخامسة ، وظللنا ثلاث سنوات كاملة لم تتعد علاقتنا زمالة الفصل العادية التى تحدث دائما بين التلاميذ .

كان اطول منى قامة ، احمر الشعر بجلد يديه ووجهه بقع حمراء صغيرة ، لكنه كان يمتاز بعينين زرقاوين باهتتين فيهما رقة وجاذبية .

وعلى خلاف ما تعتقده ، او يظنه غيرك من الناس ، ليس مما تحسد عليه ان تكون ابنا لمحافظ الاقليم وانت بعد طفل صغير فى اول مراحل دراستك ، ما من شك فى انه قديسرك ان تجد كل من حولك يخاف ان يلمسك النسيم ، وفى مركز ممتاز ووضع فريد ، لكنك تلقى نفسك فى جو مشحون بالحسد والكراهيةوسوء الظن من رفاقك الصغار ، يخشون الاقتراب منك ويتحاشونكوكان بك جربا ! ومن ثم كنت ترانى — بدل ان ازهو وافخر بمنصب ابى الكبير — ابدو متواضعا ووديعا كالحمامة ، اكاد أعتذر عن « جرم » لا ذنب لى فيه حتى احطم ما بينى وبين اصحابى من حواجز تحول دون خلق جو من التفاهم والصداقة !

وما كان ذلك تكلفا منى او تظاهرا ، بل هو الحياء الذى ولد معى والخجل الغريزى الذى لم استطع ان اتخلص منه حتى الآن . كنت اتوق دواما الى الانسحاب من وسط الزحام والانكماش داخل قوقعتى ، مثلما فعلت امى ذات يوم ، وانسحبت من الحياة العامة تماما والى الابد .

وكم احب ان اصف لك شعورى وارسمه لك فى لوحة بارزة بالوانه الطبيعية،ولعلك لم تلاحظ بعد ان اول ما يفعله الطفل حينما

يتعلم ان يمسك القلم ويحاول أن يجرى به على الورق ـ هو ان يصنع مربعا مغلقا يمثل بيتا يعتقد فى اعماق لا شعوره انه بيته الذى يملكه ، وذلك المنظر نراه دائما على شاطىء البحر حينمايشرع الصغار فى بناء بيوت من الرمال ، كذلك كنت تفعل أيضا ..

ومن ثم فان اول ما يلتصق بذاكرة الانسان هو البيت الذى يعيش فيه بأدق ما فيه من دقائق وتفاصيل . سواء اكان بيتا ريفيا عشا او كوخا من القش او فيلا انيقة أوشقةرائعة فى باريس ، أو قصرا منيفا به غرف خاصة للبواب والخدم ومصعد أو درج، وطنافس تغطى الأرض من المدخل ، أو كان ارضا عارية من الحجر او الملاط !.

اما انا فقد اعتدت كلما عدت من مدرستى ان اجد الباب غاصا بالشرطة يؤدون لى التحية فى احترام ، وعلى جانبى الدرج لوحات ارشادية عليها اسهم تشير الى كل اتجاه :

«الطابق الأول ـ القسم الثانى ـ المكاتب الادارية على اليسار»

« الطابق الاول ـ القسم الثالث ـ شئون الزراعة والفلاحين على اليمين .

« قسم المستشفيات ـ الادارة الصحية ـ ادارة العمل ـ ادارة الاسكان »

« فى الجهة الأخرى من الفناء ـ الدرج رقم (ج) ... »

فقد كنا محوطين بكثير من الابهاء والممرات واكثر من درج ، تهب منها التيارات الهوائية : ومازالت ذكراى الأدلى عن أبى مرتبطة بصورة احد السعاة ، وهو رجل أشيب عجوز يجلس الى نضد صغير امام الباب المغطى بطبقات اللباد والمطاط .

وكان الطابق الذى نشغله لسكنانا متسع الأرجاء مرتفع السقف جدا ، وطالما سمعتهم يصرخون بى : حذار أن تلوث السجادة !.

كانت التقاليد تقضى بأن تغطى كل الجدران بقطع من السجاد النادر ومجموعات من الأطباق الثمينة الملونة واللوحات الزيتية الرائعة مما يليق بمقام المحافظ .

وكلها اموال اميرية لا تملك منها شيئا ، فكل اثاث البيت مملوك للدولة ! .

ــ اش !.

وترفع مربيتي سبابتها الى فمها محذرة :

ــ لا ترفع صوتك ، ان السيد المحافظ يستقبل ضيوفا .

لم اكن مثل باقى اطفال هذه الدنيا ومن لهم اب وام ، اشقاء وشقيقات ، خادم او مجموعة من الخدم والوصيفات ، كنت محاطا بمجموعة من الناس اكرههم جميعا ،واعتقد انهم يمارسون سلطات كريهة لتقييد حريتي والحد من حقوقي الطبيعية فى ساعات طعامى وشرابى ولهوى ونومى ، يحركوننى كالدمية اينما وحيثما شاءوا حتى فى سويعات رغبتى فى لقاء ابى وامى !

فتلك النعم والميزات التى كان رفاقى الصغار يحسدوننى عليها لم تكن فى نظرى الا لعنة بغيضة الى نفسى وددت لو افر منها الى عالم اتمتع فيه بشيء من المرونة والحرية !.

كل انسان ما عدانا ، وما عداى كان له الحق فى ان يستحوذ على وقت ابى واهتمامه ، اولهم واشدهم جراة هو المسيو كورنير مدير مكتبه الخاص ، ثم سكرتيره الخاص ، ويليه مديرو الاقسام ، وكانوا اربعة من الكبار ، ثم كبار الزوار من الحيثيات الذين يعدون للمدينة ، واعضاء مجلس الشيوخ والنواب فى المقاطعة والبارزون من زعماء النقابات ومن الناخبين واخيرا اصحاب المظالم والشكايات.

وربما اتيح لنا بعد لاى وجهد شديد ان نجلس معه مرتين كل اسبوع على مائدة العشاء نتناول معه الطعام فى جلسة عائلية خاصة وحتى ذاك لم نكن نهنأ به ، فكثيرا ما كانوا يطلبونه للتليفون ،فيترك طعامه اوينهيه على عجل ليستقبل شخصا ما فى مهمة سرية عاجلة.

وفى الثانية عشرة من عمرى ، كان قد بلغ ضيق صدرى من تلك الحال حدا كبيرا حتى كدت اشعر بعدم الرضا نحو ابى لرضاه بذلك الذل وتلك العبودية التى تكبله بقيود حديدية لايستطيع منها فكاكا، والتى تحول دون ان يستمتع بحياته العائلية ،ودون ان استمتع

بهبوصفه أبي ؟ يرعانى ويولينى نصيباً من حبه واهتمامه كما يفعل سائر الاباء !.

كان رفاقى فى المدرسة يحسدوننى او يغبطوننى على تلك التحيات العسكرية التى القاها من الشرطة اينما ذهبت دون ان يخطر ببالهم أزمتى النفسية الخانقة التى كنت امر بها مما يجعلنى اكثر منهم حسداً لهم .

وبطبيعة الحال بمضى الوقت ولما اشتد عودى ونضج تفكيرى اكتشفت مدى ما كنت اتخبط فيه من افكار سوداء خاطئة ، وما اردت الا ان اصور لك يا ولدى طريقة تفكيرى وانا فى مثل سنك.

والاقامة فى دار المحافظة فرصة طيبة تسنح للانسان حتى يرى كل ما يدور على المسرح من خلف الكواليس ، شاء ام لم يشأ، وينظر بعينيه كيف يجذبون الخيوط الرفيعة التى تحرك الدمى !.

ولقد حدثتك فى مرة سابقة كيف حصلت على وسام اللجيون دونور ، وذكرتنى ذلك بمحادثة تليفونية سمعتها ذات يوم ، كان أبى يضع السماع على اذنه منصتا وهو فى الوقت نفسه يقرأ باهتمام فى صحيفة منشورة امامه ، لم يكن لها ادنى صلة بتلك المحادثة ، وكان صوت الرجل فى الطرف الآخر عميقا به رنة من الالحاف والرجاء .

وكان ابى يغمغم من وقت لآخر ، وهو يتابع بعينيه ما فى الصحيفة .

ـ نعم ، نعم ، فهمت . . .

ومازلت اراه الآن وهو يجرى بقلمه الاحمر خطا عريضا تحت بعض العبارات فوق الصحيفة ، واخيرا وبعد أن انتهى الطرف الآخر من حديثه سمعت أبى يقول :

ـ واثق أنت من انه لن يرضى بوسام (سعف النخيل) ؟ نعم، نعم ، فهمت ، حسنا يا سيدى العزيز ، اتفقنا ، سوف انقل طلبك للسيد الوزير طالما هذا رايك وتعتبره هاما وتستطيع أن تعده بوسام الصليب !.

ذلك مثل واحد من بين الآلاف ، فما كان يعتبره الناس سرا خطيرا انما هو أمر عادي بالنسبة الينا حتى لصبي في مثل سني..

ـ نعم ، نعم ، أواثق انت من عدم حصول تلفيات ؟ سأتصل فورا بمدير الشرطة ، طمئنه يا صديقي العزيز ، قل له الا يقلق ، فسوف يتم كل شيء على ما يرام .

وكنت اعتقد في بادىء الأمر ان ابي مخادع كبير ، او رجل شرير يستعمل نفوذه القوي في عرقلة سير الأمور على حسب طبيعتها ، فشعرت نحوه بالغضب .

حتى بين جدران مدرستي لم يكن ضميري مرتاحا ، وطالما ساورتني الظنون بأن ما القاه من تظرف رفاقي وتلطفهم معي ليس أمرا تدفعهم اليه سجيتهم،بل لابد انهم مدفوعون الى ذلك من أولياء أمورهم لأن لهم ملتمسات يبغون تحقيقها من ابي ، وامتدت تلك الظنون الى اساتذتي حينما رأيت احدهم يخرج من مكتب ابي في المحافظة وقال ابي لنا ونحن على مائدة الطعام :

ـ مسكين هذا الشاب ! الأطباء يقولون ان هواء البحر يفسد صحته ، وبرغم ذلك يصدر مدير التعليم امرا بنقله الى هناك ! لقد وعدته بأن أوصي بنقله الى سافواي كما يريد ويحب .

وآباء أصدقائي الصغار كانوا يستغلون فرصة صداقتي ؛ ويعتمدون بأية طريقة على تنفيذ مآربهم وتسهيل مصالحهم من ابي ، وشعرت بحقارة شأني وضعف شخصيتي امام الناس جميعا، فلو لم اكن ابن المحافظ ما اعارني مخلوق فتيلا؟.

وكنت اشعر برغبة شديدة في ان اصيح قائلا : ذلك غش وخداع ، خداع !.

بيد ان ابي لم يكن مخادعا،كان يؤدي رسالته في امانة واخلاص وضمير يقظ ، ذلك ما اكتشفته بعد حين !

وكنت انا الجاهل الاحمق الذي سمحوا له برؤية ابطال القصة من خلف الكواليس ، ولم يفهم قيمة ما يؤدون من ادوار سامية ،بل

اكتفى بالتفرج عليهم وهم يرتدون الثياب ويضعون المساحيق والالوان !.

ولذلك لم انكر تلك العبارة التى سمعتها يوما ما - من ان عالمنا يتألف من نوعين من الناس - فريق يؤدي رسالته الكاملة على اتم وجه ، وفريق آخر انما يعيش على هامش الحياة ، كأشباح تتحرك بلا هدف مرسوم !.

وفى تلك الظروف النفسية التى اوضحتها لك التقيت بنيكولاس واتخذته لى صديقا .

ولم اكن قد القيت اليه انتباها خلال ثلاث سنوات كاملة وهو معى فى المدرسة .

ففى كل فرقة دراسية تمتلىء مقاعدها الخلفية ببعض التلاميذ الذين لا وظيفة ولا عمل لهم الا ملء الفراغ حتى ان المدرسين فى أغلب الظن لا يشعرون بوجودهم !

وكان نيكولاس احد هؤلاء ، بطىء الذكاء فاقد الحماس للدراسة ، يحتل دواما مقعدا خلفيا ينزوى فيه لا يضر احدا ولا يضره احد ! . فلم يكن من بين اولئك الذين لا يكاد ناقوس المدرسة يدق حتى يثبوا على دراجاتهم منطلقين الى ضواحي المدينة او الحقول ، كذلك لم يكن من بين تلك المجموعات أو الشلل التى تسير معا فى المدرسة فى طريقهم لبيوتهم .

ولم يسترع انتباهى - على وجه التحديد - الا ونحن فى الفرقة الثالثة « الصف الثالث » حين صار هواية لا يستغنى عنها مدرس اللغة الانجليزية كل صباح ! ولقد علمت بعد ذلك عن هذا المدرس الذى فصلته ادارة التعليم لعدم صلاحيته للتدريس انه كان يعانى الامرين من فظاظة زوجته ومعاملتها الخشنة له ..

كان صاحبنا المدرس يخشى سخرية التلاميذ وسلاطة ألسنتهم، فلم يجد طريقة يحمى بها نفسه سوى ان يختار من كل صف تلميذا بليدا ضعيف الشخصية يجعله ضحيته طوال العام ، ليجعله درسا لجميع التلاميذ حتى يبث فى قلوبهم الخوف ويدفعهم الى احترامه طبقا للمثل المعروف اضرب المربوط يخف السائب !.

ففي كل حصة له كنا نشهد تعلا بينه وبين نيكولاس ما كنا نتوقعه لطول ما اعتدنا ، ويظل الصبي الصغير واقفا على قدميه وقد احمر وجهه والتهبت اذناه ! ».

وعرفت من ملاحظات المدرس ان ام نيكولاس كانت تفتتح متجرا تبيع فيه كل ما يلزم الأطفال قبل الفطام من « القصارى » والمناشف والمفارش ، الأمر الذي كان يبعث على النكات السخيفة والتعليقات الرخيصة من استاذنا المحترم ومن جرى على شاكلته من التلاميذ !.

وعرفت ذلك المتجر ، وكان في شارع « جيتسو » بين محل القصاب اعتدنا ان نشترى منه ما يلزمنا من اللحوم ، ومتجر لبيع الادوات الجلدية ، وسرعان ما كنت اعود من ذلك الطريق بصحبة نيكولاس في اغلب الأيام .

وكان ابوه قد مات بين جدران مستشفى المجاذيب ، وهو شخص برغم أنه كان يبدو اقوى مني واكثر بدانة كان قد امضى عامين يعالج من مرض في صدره في احدى المصحات الجبلية مما جعل امه تخشى عليه من التعرض لاى تيار هوائى ، وتنزعج لو اصيب بلمسة برد ، كان قد سمع وقاسى طويلا من المرض مما جعله يتمنى من اعماقه بل عقد العزم فعلا على ان يصير طبيبا .
وكان يضيف : هذا اذا استطعت ان اجتاز اختبار البكالوريا طبعا !.

كان يقولها في شبه يأس لعدم ثقته في نفسه !

وبقدر ما كان طويلا عريضا كانت امه نحيلة القوام ، ضئيلة الجسم ، شاء القدر أن تترمل وهي بعد في ريعان شبابها ، فمضت تكسب قوت يومها في ذلك المتجر الصغير من أدوات الأطفال ولوازمهم .

وكادت تطير من الفرح والعرفان بالجميل حينما عرفت انني قد اتخذت ابنها رفيقا لي ، ولم تنس قط ان ابي هو محافظ الاقليم مما جعلني اشعر بعدم الارتياح .

ومما ضاعف ارتباكى انها ما تكـاد ترانى احضر برفقة ابنها لعمل الواجب المدرسى معا ، حتى تهرول الى نصف الدكان الخلفى وتسرع بتنظيفه واعداده حتى يبدو فى مظهر لائق!
ـ يخيل الى انك جوعان يا مسيو آلين ؟

واقتضى الامر شهورا واضطررت ان احدث نيكولاس مرارا حتى كفت والدته عن أن تدعونى بلقب «السيد» ومـع ذلك كانت تفعل ذلك مكرهة ولم تستطع ان ترفع التكليف معى قط .
ـ لقد شاهدت الآنسـة لافرنسوا تمر من أمامى توا مع بعـض صديقاتها الصـغيرات ، يا لها من شابة جميلة ! وما أروع ثيابهـا ايضا !.

ولم اتأثر قط بشخصية نيكولاس لانه كان فاقدها وفاقد الشيء لا يعطيه ! كان مثل أمه راضيا آخذا نفسه بالقناعة والاستسلام ، يأخذ الحياة كما هى دون تبرم أو احتجاج حتى تلك المعاملة الشاذة التى كان يلقاها من مدرس الانجليزية لم تكن تثير فيه أى شعور بالضيق او الغضب على كرامته !

واعتقد انه كان سعيدا ، واكبر الظن انه ما زال كذلك فى قرية شارنتى حيث قيل لى : انه الآن طبيب ناجح ، وقد ضم الى جانبه والدته لتقضى معه ايامها الاخيرة فى هدوء .
ـ أتسمح لى بأن أسألك يا سيد نيكولاس : فيم تحلم الآن ؟
واستطيع ان اتخيله جالسا الى قمطـره بجوار النافـذة وقد فاجاه الأستاذ بسؤاله فانتفض مذعورا ، وراح ينظر حواليـه فى بلاهة وارتباك ويغمغم .
ـ آسف يا سيدى !

وكان الوحيـد الذى لا يناديه المدرس باسمه مجردا من باب السخرية .. طبعا ..
وعلى اية حال فقد كانت علاقتى به طيبة ، وتوثقت صداقتنا شيئا فشيئا ، وانسحبت من المجموعات الاخـرى ولم اكن فى الحقيقة أنتمى لاية منها ، ولم يعد لى بين الرفاق صديق سواه ؟ وظلت علاقتنا معا فترة طويلة .. حتى عام ١٩٢٨ ، ومع ذلك فلم

اشعر قط طوال هذه المدة باني في حاجة لأن اشركه في تفكيري او ابثه اسراري او افتح له مغاليق قلبي .

كل ماكنت ابغيه ، صديق اجده وقتما اريد ، اقضي معه سويعات فراغي دون ان يتضايق او اثقل عليه بصحبتي .

***

كنت وقتئذ ـ غير مؤمن بوجود اى نوع من الصداقة الحقيقية لطول ما شاهدت من نفاق في المحيط الذى كنت اعيش فيه .. وكثيرا ما كنت اسمع ابي يتكلم في التليفون :

ـ مرحبا بصديقي العزيز ! لا ، لا ، ارجوك الا تكلف نفسك عناء الحضور ، يكفي ان تبعث اى انسان الى مكتبي صباحا ، ستكون الاوراق جاهزة ، نعم ، تحت امرك ايها العزيز !

فثمة فريق من الناس كل الامور ميسرة لهم ، وحوائجهم مقضية حتى دون ان يجشموا انفسهم عناء السعي وراءها على حين كانت دهاليز المحافظة وابهاؤها تبدو اغلب الأحيان مزدحمة بالعجائز من السيدات القرويات اللاتي يتعلقن بأهداب اى شخص يمر بهن متسائلات :

ـ هل تخبرني يا ولدى ؟ اين استطيع ان احصل على معاش شيخوختي ؟

وقد ترى خارج الابواب الأخرى طوابير طويلة من الرجال ، ثيابهم رثة وذقونهم لم تحلق ، وكذا بعض النسوة يحملن هياكل نحيلة يسمنها اطفالا .. برزت عظامهم وجفت جلودهم فقرا واملاقا ..

وما كنت الوم ابي على ذلك لكني لم اكن فخورا بمنصبه او بمدى ما يجمع بين يديه من نفوذ وسلطات وانا اراه يبدى شديد اهتمامه بطراز خاص من الناس ، يبتسم لهم ويناديهم بقوله : « صديقي العزيز » عبارة كانت كالقذى في عيني لطول ما كرهت سماعها ، وقد يدعوهم احيانا على المائدة يشاطرهم الطعام !

وفي تلك الايام كانت في لاروشيل شخصية بالغة الاهمية ، تحمل اسم « بوريل » لعبت دورا هاما في ماساة عام ١٩٢٨ ، ومن اجل ذلك اراني مضطرا الان اشير اليه في حديثي .

وبالرغم من أن ذلك الشخص لم يكن موظفا رسميا ، وبلا اية شهادة او حرفة . فقد كان وحده بمثابة قوة معارضة هائلة تعرقل مشروعات ابى وتقض مضجعه ، وكان بى شـــعور خفى بان ابى يكرهه من اعماق قلبه ، ومع ذلك يحاول عبثا مهادنته وملاينته بلا نتيجة بتاتا .

واذ كان ابوه صائد سمك بسيطا ، فقد بدا حياته فى البحار وعمل ربانا لاحدى السفن التجارية المملوكة لبعض الأهالى والتى تستخدم فى نقل الفحم الى انجلترا ، ولست ادرى : ما الذى حدث تماما ؟ لانى لم اهتم ببحثه فى ذلك الحين ، وكل ما اعرفه انه ارغم ذات يوم على تقديم استقالته . .

وكان فى الاربعين من عمــره ، فمضى يقضى ليله ونهــاره على شاطىء البحــر وفى سوق السمك بمرفأ باليس ، وعلى المقــاهى المحيطة بالميناء وخاصة « عند اميل » حيث كانت له مائدة خاصة فى احد الاركان بجوار النافذة . . .

كان بدين الجسم ناعم الشعر قليل العناية بثيابه أو هندامه ، وحينما ابصرته عيناى أول مرة بعد أن سمعتهم يذكرون اسمه فى بيتنا كدت أصعق لمظهره البرىء ، فلم يكن يبدو عليه أية شراســة او فظاظة فى الخلق : كان فى منظره ما يذكرنى بصديقى نيكولاس ، من العينين الزرقاوين بما فيهما من طيبة ودعة لولا انه كان يضـع عوينات سميكة عدساتها غليظة كانها تلسكوب ! .

وليس من السهل على المرء ان يحدد الدور الذى كان يلعبــه بوريل فى الحياة العامة وفى السياسة المحلية من غير أن نذكر ما كان يطلقه عليه كلا الجانبين معا : الجانب الذى يؤيده ، وذاك الذى يعارضه ، من الشائعات .

فحماة القانون والنظام ، الحكومة والمحافظ ، اصحاب السفن ، والناس من امثال والدة نيكولاس يقولون : انه فوضوى خطير ، رجل لا يحلو له الصيد الا فى الماء العكر ، ارهابى آثيم يجد لذة كبيرة فى اثارة القلاقل والشغب .

وحتى افراد هذه الطائفة يعترفون بان ما يبدو عليه من طيبـة

وبراءة ونبل ، ليس الا ستارا لما يخفيه فى نفســـه من ذكاء ودهاء الشياطين ، وعقلية قانونية ماكرة كثيرا ما هددت الأمن ووضعت الاجهزة الحاكمة فى وضع حرج بالغ الدقة .

اما الباقون فهو فى نظرهم بطل قلما يجود التاريخ بمثله ، جمع بين الثقافة والتجربة ، وكل منصبه فى قيادة عابرات المحيط ليقود شعبه نحو النصر ، تواضع وتدلى من مكانه الســـامى ليجلس بين اهل قريته ومواطنيه وذراعاه مفتوحتان لهم يضمهم بين أحضانه ؛ ينصت الى شكاياتهم ومظالمهم باذان مصغية واعية ، ولا يتوانى ابدا فى بذل المعونة والنصيحة بلا مقابل !

ورث عن ابيه نصيب الثلث او الربع فى بعض قوارب الصيد ؛ ولم يكن ذلك كافيا أو ليقيم اوده ، فقـــد كان زوجا ولديه ثلاثة أو اربعة أولاد ، أحدهم دخل الليسيه فى السنة التى تخرجت فيها ؛ وكان يســـكن فى بيت صغير وسط فضـــاء كبير من الأراضى المهجورة .

من أين كان يحصل على المال ليغطى نفقاته ومصروفاته ؟ أمن صندوق اتحاد عمال البـــواخر الذى كان يتزعمه بطريقة غير رسمية ؟

وبالاضافة الى عمال البواخر فى لاباليس ، ورجال شحن الفحم فى المرفا ، امتد نفوذه ايضا الى جميع صيادى الأسماك فى أعالى البحار حتى قيل : انه كان فى وسعه ـ باشارة خفيفة من يده أن يحدث اضرابا شاملا فى جميع وسائل الشحن والتموين والصيد لو اراد !

لم اعلم بكل ذلك الا قبيل معـــركة الانتخابات الاخـــيرة بفترة وجيزة حيث رأيت أبى يستقبله بعد العشاء عدة مرات فى مكتبه ؛ وكان فى كل مرة يخرج من لقـــائه قلقا مهموما ، هل كانا يعقـــدان اتفاقا ؟ . وهل كان أبى ـ بوصفه ممثل الحكومة ـ يشترى حياد الرجل ؟ والى اى مدى ذهب فى محاولة اقناعه ؟

لست أدرى عن ذلك شيئا يا ولدى ، لا أكثـــر مما تعرفه أنت عن أسرار عملى .»

وكلما امتد بالانسان العمر ، وحنكته التجارب اضاءت امام أبصاره آفاق كانت من قبل غوامض مجهولة لا يستطيع لها ادراكا او تفسيرا .

وكلما تذكرت « بوريل » تمثل في خاطري شخصا خرافيا تتناقله الأساطير ، ورمزا يخلد قصة الثورة والنضال ولذلك كنت اكن له في نفسي قدرا من الاحترام .

وارجو الا تسيء الفهم ، فما كان لي شأن بما يدور ، ولم اكن في سن تسمح لي بابداء آرائي علانية ، او الانحياز الى فريق دون فريق .

كان ابي يمثل السلطة التي تحكم ومن بعده السيد كورنير ، ثم العم فاشيه بعد ذلك بفترة طويلة .. وما يتبعهما من جهاز اداري يمثلان السلطة التنفيذية ومن خلفهما أصحاب المصالح الذين يؤيدون النظام رعاية لمصالحهم وخوفا من زوال نفوذهم ، ومن ثم يحرصون على بقاء الأحوال كما هي .

ومن وراء كل هؤلاء يقف امثال والدة نيكولاس ، ببيتها الصغير النظيف وخلف متجرها البسيط الذي تبيع فيه لوازم الاطفال - يمثلون الطبقة « الطيبة » من الناس يطيعون دون مناقشة لانهم جبلوا على الطاعة .

ولا تعجب اذا علمت ان الامور كانت تختلط في رأسي بالرغم من اني كنت أعيش وسط الدائرة التي تحترف السياسة وتناقش بعمق وصراحة امامي كما كان بين ضيوفنا أعضاء الشيوخ والنواب او زعماء النقابات والبارزون ، ومع كل ذلك فما كنت أهتم بتمييز طائفة دون اخرى .. او اعني ببحث أسباب الخلافات التي كانت تصنع هوة عميقة بين اليمين واليسار حتى الموضوعات السياسية التي كانت الصحف تفرد لها اعمدة طويلة لم تكن تثير في نفسي اي فضول ، بل تبعث فيها الملل والضيق .

ولكني كنت عدوا للحركات الانقلابية الثورية التي تهدف الى تغيير اي نظام استقرت رواسيه وهدمه ، وفي الوقت نفسه كان

قلبى دائما فى صف المحكومين اكثر من الحاكمين او اذا شئت صراحة أوفر : مع المظلومين لا مع الطغاة الظالمين !.

وكنت أشعر بارتياح عميق لصداقتى بنيكولاس ، وربما كان من اهم أسباب ذلك انه لم يكن يحشر انفه او يسأل عما لا يعنيه ، لم يهتم قط بالسياسة او بالمعركة الانتخابية التى استعر اوارها وقت ذاك ، ولا يفكر الا فى امل وحيد يشغل باله ، هو حصولهعلى البكالوريا التى كانت بالنسبة له حلما بعيدا ، ومعجزة كبيرة عسيرة المنال والتحقيق ! فاذا ما حطم ذلك العائق العتيق انطلق الى دراسة الطب فى بوردو التى تقيم فيها احدى عماته ، ثم يستقر نهائيا فى احدى ضواحى لاروشيل يمارس عمله دون ضجة ، لان امه كانت تحلم بقضاء آخر ايامها بين احضان الريف .

وكان قلبه الكبير يتسع لحب الناس جميعا ، ينظر الى الدنيا من خلال منظار وردى بهيج .

وربما كان سبب فرحته وسعادته وتفاؤله انه امضى جزءا من طفولته معزولا فى مصحة صدرية بين الحياة والموت حتى اذا ما كتبت له النجاة شعر كانه ولد من جديد ، وان الله قد بعثه مرة اخرى « كان كاثوليكيا » ، وكلما وجد من وقته فرصة من فراغ كل صباح هرول الى الكنيسة ليحضر القداس .

وكما لو كان بيننا اتفاق مشترك : فلم نكن لنتحدث ابدا فى السياسة ، أو الدين ، وان كان قد ابدى لى دهشته ذات مرة من انى لا ادخل الكنيسة ابدا الا لشهود حفل زفاف أو جناز !.

***

وارتدينا السراويل الطويلة فى وقت واحد ، وكان ذلك يحدث فى وقت متأخر عما أنتم عليه الآن . وشربنا سيجارتنا الأولى معا ، هو فى تكتم شديد وفى خفية عن والدته التى كانت تنهاه عن ذلك ، وانا علانية لان ابى لم يبد اعتراضا !.

وشعرنا بقدر متعادل من الاضطراب وخيبة الامل ان لم اقل بكثير من القرف والاشمئزاز ولكنا لم نتحدث ابدا فى ذلك الموضوع .. وحينما انطلق الى هناك مرة ثانية ـ فقد ذهبت بدورى مرة

اخرى وسمعتهم يذكرونه ، انطلق بمفرده دون ان يخبرنى او يطلب منى مرافقته ..

ولقد كان لك فى العام الماضى صديق ذكرنى مرآه نيكولاس ، هو ذلك الفتى الذى دعوته باسم فرديناند والذى قلت لى ان اباه قصاب خنازير ، الامر الذى سبب صدمة عنيفة لوالدتك ، وقد حضر مرتين او ثلاث مرات لزيارتك ، ولا اشك فى انكما خرجتما معا فى تلك المرات ، ولكنك لم تعد تذكر لنا عنه شيئا كما اعتدت دائما مع اصدقائك الكثيرين .

هل كان ابى محقا فى شعوره بالقلق ؟ وهل كان نيكولاس حقا طرازا رديئا من الصبيان ماكان ينبغى لى ان اصادقه او اماشيه ؟
كان ابى يعرف عن اصدقائى وما افعله اكثر مما اعرفه انا عنك ، ولا اعنى انى الومك على تكتمك اسرارك .

وكنت بطبيعة الحال اخشاه واهابه اكثر مما تهابنى انت الآن ، ولكنى كنت افهم واقدر اضطراره لان يتخذ معى مواقف معينة فى بعض الاوقات حينما اتجاوز حدودى او يبدر منى ما لا يليق من من التصرفات ؛ دون ان اشعر بأى ضيق او غضب ، بل كنت اتألم من اجله ، لثقتى بأنه انما يفعل امرا كريها الى نفسه ولا يقصد الا الخير لى ، تماما مثلما يحدث معى الآن حيالك .

كذلك كنت اشعر بالأسف والحزن عليه ، لانه حتى فى الفترات الوجيزة التى كان يختلسها من عمله المضنى ليرتاح فيها لا يجد امامه الا نظرات امى المشدودة الى الامام ! وكنت احسده على سعة صدره وصبره العجيب .

كان يذهب مرة كل شهر الى باريس لأعمال ينجزها فى وزارة الداخلية ، وبعض الوزارات الاخرى ، وكثيرا ما كان يمكث بها يومين او ثلاثة .

هل كانت له صديقة معينة يتردد عليها فى تلك المواعيد .. أما تراه كان يترك ذلك للمصادفات وحدها ؟
ومن المفهوم طبعا انى لم اساله ابدا ... رغم انى متأكد الآن

من انى لو سالته لاجابنى بكل صراحة وصدق كما لرانى افعل بنفسى ذلك .. لو كنت مكانه .

وكانت لنا بعض لحظات المودة والالفة ، نتبادل فيها بعض الاحاديث القصيرة مساء كل يوم تقريبا مثلما افعل انا وانت احيانا ما عدا اننى انا الذى كنت ازوره دواما واسعى اليه فى غرفته .

وكان الطابق المخصص لاقامتنا فى المحافظة متسع الارجاء عديد الغرف والابهاء ، تشغل اختى منه سواء قبل زواجها او بعده ـ طرفا بعيدا يطل على الفناء الثانى الخلفى ، أما غرفتى فكانت على الطابق الاسفل . ولم يكن لدينا غرفة عائلية صغيرة للطعام ، فكنا نستعمل المائدة الكبرى المخصصة للمآدب الرسمية والمجاورة للصالون الكبير حيث تقام حفلات الاستقبال والرقص .

وحين كنا نخلو لانفسنا ونتناول العشاء ـ الأمر الذى كان يحدث مرتين او ثلاث مرات كل اسبوع : كان عددنا خمسة حول المائدة المعدة لجلوس عشرين .. يفصل بين كل فرد وآخر فراغ كبير ـ ابى وامى ، وشقيقتى وزوجها ، وانا . وشد ما كنت اشفق على الساقى (فالنتين) الذى كان يتعب لطول المسافة فى توصيل الاطباق الينا .

وما زلت اذكر تلك القاعة التى كنا نجلس فيها للطعام وتلك « النجفة » الضخمة ذات الخمسين مصباحا كهربيا او اكثر معلقة فوق رؤوسنا والتى لم تكن تضاء قط الا فى المآدب الرسمية ، وتكتفى بزوج من الشمعدانات على طرفى المائدة الكبيرة ، يكاد يكفى لتعرف ما فى الصحون امام عينيك ، على حين كانت تسبح الجدران وباقى الغرفة فى الظلام وعلى الحائط المواجه لمكانى مباشرة فوق رأس شقيقتى سجادة باهتة اللون تستطيع بصعوبة بالغة تمييز رسوم بعض الغزلان ، ترعى العشب حول قناة جارية .

وكانت ثمة لوحة كبيرة معلقة على الجدار تمثل فتاة ترعى مجموعة من الاوز ، وما زلت ارى فى خيالى تلك الاوزة الضخمة البيضاء التى انفردت عن شقيقاتها فى مؤخرة الصورة ، وبدت بارزة

وسط الاطار اللامع العريض كانها اوزة ناضجة تحتل طبقـا كبيرا تغرى بأكلها !

ونحن ـ فى شارع ماكماهون ـ لدينا من يقف على رءوسنا فى اثناء الطعام يلبى طلباتنا ، ولكن ما يكاد الخادم يقدم الصنف حتى ينسحب ويتركنا فى هدوء حتى نستطيع ان نتحدث كما نشاء .

بيد انى ـ فى طفولتى وصباى ـ لم اجرب هذه الحرية قط فكنت اشعر دائما بذلك الساقى الأسمر ذى الثياب البيضـاء والسروال الاسود والكتفين العريضتين والوجه الصارم كانه تمثال من البرونز .. كنت اشعر به دائما خلفى يتحرك بخفة القط حاملا بين يديه المغطاتين بالقفاز الأبيض نوعا من الطعام .

وربما استغرب بعض اصدقائك ممن كنا ندعوهم للطعام ، حينما يشاهدوننى أعد المقعد لوالدتك لتجلس عليه امام المـائدة قبل ان اتخذ مقعدى بجـوارها فتلك عادة تعلمتها عن ابى الذى كانت من أحد واجباته الا تفوته ولا يغفل عنها ابدا .

وهناك كانت تجلس امى دون أن تخفض عينيها لتعبر عن شكرها ودون ان تبتسم ! وكأنها احدى ملكات العصور الوسطى تتقبل فى عظمة واستعلاء ضيافة أحد رعاياها وعبيدها المخلصين ! ثم تأكل فى صمت لا تشترك ابدا فى اى حديث او مناقشة !

وفى اغلب الأوقات كان الحديث مقصورا على قاشيه وشقيقتى، وكثيرا ما كان ابى ـ حين يتضايق من السكون القاتل او لا يعجبه ما يدور بين ابنته وزوجها ـ ينظر الى قائلا :

ـ وانت يا ولدى ، ماذا فعلت اليوم ؟

وذلك حتى يغير موضوع الحديث الذى اختاره قاشيه الذى اكنت اعتقد دائما انه يتعمد فيه اثارة ابى فسـواء كان يتحدث فى الفنون والاداب او فى الفلسـفة او الموسيقى او فى القانون أو علم الادارة او حتى فى « المودة » فى الثيـاب او الاثاث ـ كانت آراؤه دائما معارضة لآراء جدك ، وكانه يجد لذة فى تسفيهه والوقوف فى وجهه !

واكاد اقسم أن علاقته بشقيقتى التى انتهت بزواجه منها لم تبدأ داخل مبنى المحافظة ، فلم يكن لنا اى احتكاك بالموظفين ما عدا قلة يعدون على الأصابع ، مثل السيد توربتر الرجل العاقل الرزين مدير المكتب الخاص ، وهيكتور لوازو السكرتير الأول ، وأحيانا مع سكرتيرة ابى الخاصة المدموازيل بوتوم .

ولا بد انهما تلاقيا فى المدينة ، وقد دفعه طموحه الى ان يتخطى الكثيرين ممن هم اكثر منه سنا وخبرة وارفع منه منصبا ، ولكنه كان يعلم ويؤمن بأنه يستحق ذلك واكثر منه ايضاً فاستأنف قفزاته الى الأمام .

فهل ادرك أبى فيه ذلك الطموح وشجعه عليه ، أو تراه حينما وافق على زواجه ومصاهرته كان مدفوعا بمبدئه الذى لا يحيد عنه فى عدم التدخل فى حياة الآخرين حتى لو كانوا أبناءه ؟

ولو حدث مثل هذا الزواج فى محيط اية اسرة اخرى ، ما حال ضيق يد الزوج عن ان يخرج هو وزوجته ليقيما بعيدين عن اسرتها ، ولكن فاشيه الماكر الذى يخطط للمستقبل ، قد وجد مصلحة كبيرة فى ان يظل مرتبطا بأسرة المحافظ فى نظر الخاصة والعامة حتى يظل دائما فى الصورة ، وحتى تفتح أمامه جميع ابواب المجتمع اكراما لخاطر حاكم الاقليم !

ولو ظلت آرليت ــ حتى بعد زواجها ــ منضمة الينا قلبا وقالبا ــ كما كانت وهى بعد فتاة ، ما كانت هناك مشكلة فى محيط الاسرة ولكن الذى استرعى نظرى ــ وكنت لم أتجاوز بعد سنك الآن ــ هو انها كانت ــ وبين كل يوم وآخر ــ تزداد عنا بعدا لتنضم جسما وروحا الى زوجها !

وكنا حتى لحظة زواجها ننظر اليها كأى فرد من أسرة لافرنسوا بل لقد كانت أكثر اتصالا وارتباطا بأبى منى صداقة ومودة ، وكثيرا ما كنت أراهما على المائدة يتبادلان النظرات والابتسامات الامر الذى يدل على المشاركة فى الفكر وانهما كانا يتحدثان طويلا فى ألفة وتفاهم .

ولكن ما كاد فاشيه يدخل في حياتنا ـ خطيبا لها ـ حتى بدأت آرليت تتغير تماما فى طباعها وطريقة حديثها حتى الطريقة التى كانت تصفف بها شعرها!

ولعل اكثر ما اثار دهشتى ان نظريتى فى الحب قد انقلبت راسا على عقب وانا ارى الطريقة التى بدا فاشيه يعامل بها اختى! لم يكن يتملقها او يسعى لارضائها قط، بل كانت هى التى بدات ـ بعد اسابيع قليلة تعمل على تلبية طلباته وارضائه فى مذلة وخضوع تخشى عليه من النسيم حتى لا يجرح خديه! لا تشكو ابدا مهما أساء « الاتيكيت » وقواعد الأصول فى معاملتها .. كما يحدث كثيرا مع محدثى النعمة.

وبعد ان نشر مجموعة من القصائد فى عدة مجلات مختلفة بدأ يكتب قصة طويلة وكانت آرليت تسهر طوال الليل تكتب له على الالة الكاتبة وهو يملى عليها:

« على المرأة ان تكون مرآة لزوجها تنعكس عليها طباعه وشخصيته ».

وكان ابى يصغى فى صمت، وربما قطب حاجبيه عبوسا فى بعض الأوقات او يبتسم متعجبا وهو يرى ابنته سليلة اسرة لافرنسوا تبذل طاقتها فى خدمة زوجها بكل الوسائل على حين انه يتقبل كل ذلك كأنه حق من حقوقه!

كان موضع حسد من زملائه موظفى المحافظة لأنه استطاع ان يفوز بابنته، فشاء ان يتمم مركب النقص فى نفسه فتمادى فى اظهار عدم اكتراثه بذلك النسب، وكأنما نحن الذين سعينا اليه وكأنما هو الذى أولانا شرفا كبيرا حينما تواضع فصاهرنا!

ومن امثلة ذلك انه كان آخر من يجلس الى مائدة الطعام حتى نضطر جميعا الى انتظاره، وكان يحضر مرتديا روبه المنزلى وبدون ربطة عنق، منتعلا فى قدميه الخف الذى يستعمله فى غرفة النوم.

وينظر الى زوجته وهو ينفخ من انفه فى استياء!

ـ هلا تركتمونى نصف ساعة اخرى حتى أنتهى من اتمام الفصل !

وهو يقصد بذلك ان يظهر اشمئزازه من تمسكنا بتقاليد المائدة ويعبر عن نفوره من المواعيد التى حددناها لتناول الوجبات !.

واذا كانت السنوات الطويلة لا بد ان تترك اثرا على كل انسان يظهر عليه بوضوح كلما تقدم به العمر ، فان فاشيه ـ من دون الناس جميعا لم يطرأ عليه أى تغيير ، لم يزد وزنه درهما ولا حجمه قيراطا عما كان فى صدر شبابه سوى ان الدهاء والمكر وخبث الطوية التى كان يكتنزها فى أعماقه بدت اكثر ظهورا فى عينيه وحول فمه !

كان يذكرنى بذئب عجوز فى حركاته ترقب وحذر ، ويتأهب دائما للانقضاض والفتك بأية فريسة يسوقها سوء الحظ بين انيابه !.

حتى قصصه التى لا احبها وان كنت اعترف بأنها قوية ومحبوكة الأطراف ـ تؤكد روحه الهجومية ورغبته المدفونة فى التشفى والانتقام ، اما مقالاته التى تتسم بالتهكم اللاذع والنقد المسموم الهدام والتى تفرد لها بعض الصحف أعمدة خاصة ـ فهى التى اكسبته الشهرة واحترام الناس ورهبتهم .

وبعد العشاء يثب واقفا يكاد يقلب مقعده فى وقاحة قبل ان يقدم الساقى أطباق الحلوى وينتهى العشاء ويعود لاستئناف عمله ثم تتبعه اختى بعد فترة قصيرة وتنطلق امى الى فراشها مبكرة اما ابى فيغادر الطابق المخصص لسكنانا ويذهب الى مكتبه الرسمى ليزاول عمله فترة المساء .

وقد يعتقد الناس جميعا كما كنت اظن وقت ذاك انه يزاول أعمال وظيفته ، يقلب بين الاضابير والملفات التى لم يتسع وقته ليحثها خلال النهار بسبب دخول وخروج مديرى الادارات والاقسام ورنين اجراس التليفونات .

بيد انى اكتشفت انه كان فى تلك الساعات المتاخرة من الليل وفى ذلك المكتب القابع فى نهاية الممر الطويل بين مكاتب الموظفين

التى خلت منهم ، كان يخلو لنفسه ويغلق عليه باب مكتبه يستمتع بلحظات ممتعة يشبع بها هواية خاصة بعيدة عن روتين العمل اليومى .

وكانت القراءة افضل هواياته واحبها لنفسه ، ينكب على كتابه وقلمه الاحمر فى يده يضع خطوطا تحت عبارات باكملها ويضيف على هامش الصحيفة تعليقاته الطريفة وانطباعاته النفسية بخط جميل دقيق .

وكان ذلك من بين الاسباب التى جعلتنى اتمسك بنفائس الكتب التى خلفها ابى ، حتى لا تقع بين براثن ذلك الذئب فاشيه مهما كانت التضحيات !

وكنت حالما انتهى من اداء واجباتى انطلق الى ابى لالقى عليه تحية المساء ، وبالرغم من انه لم يكن بيننا فى معظم الاحايين الكثير مما يقال فقد كانت تلك اللحظات من اسعد اوقاتى ، افتح باب مكتبه الخارجى المبطن باللباد والمطاط وشرائح النحاس اللامع . ثم اطرق الباب الداخلى فى رفق وادفعه دون ان انتظر جوابا ، وهناك يجلس ابى بجوار المدفاة المتاججة نيرانها شتاء ، او بجانب النافذة الكبيرة المفتوحة على الفناء الخلفى صيفا يدخن سيجارة فى تلك الساعة من الليل ، والى الان ما تزال رائحة التبغ تنبعث فى انفى ، وما زالت سحب الدخان الزرقاء تبدو امام عينى وهى تدور فى حلقات حول ضوء المصباح ذى الغطاء المظلل والقابع خلف مقعده .

ويستدير نحوى قليلا وهو يغمغم :

ــ هل هذا انت يا ولدى ؟

واقف بجوار المدفاة شتاء او بجانب النافذة صيفا دون ان آتى بحركة او انطق حرفا حتى يتم قراءة القطعة او الفقرة التى كان مشغولا بها .

وفى النهاية يرفع راسه ويرمقنى قائلا :

ــ حسنا !

والان وبعد ان صرت ابا اعلم يقينا انه لم يكن يقل عنى اضطرابا وحيرة !

ـ هل استذكرت جيدا ؟
ـ نوعا ما .
ـ اسعيد انت ؟

ولم يكن حديثنا ـ فى اكثر الاوقات ـ يزيد كثيرا عن ذلك ، فانحنى فوقه وكتابه منشور على ركبتيه ، واطبع قبلة خفيفة على جبينه ثم انطلق الى فراشى ، وربما تبادلنا شيئا عن مجريات الأمور فى ذلك اليوم .

لم يكن من طبعه استدراجى او محاولة اكراهى على الافضاء بما اعتقده فى نفسى سرا .

وفى ليلة ما حينما ذهبت القى عليه تحية المساء ارانى فقرة فى كتاب كان منهمكا فى قراءته :

« قلما يصل الابناء الى حقيقة حب الاباء لهم ورغبتهم الخالصة فى تقديم النصيحة الصادقة ، الا بعد ان يتجاوزوا المرحلة التى يحتاجون فيها فعلا الى النصيحة والارشاد »

ولم اصل قط الى معرفة اسم ذلك الكتاب او حتى اسم مؤلفه ، كذلك لم اسأل ابى عنه حتى لا اقلل من قيمة الرسالة الصامتة التى كان يوحى بها الى والتى يخيل الى انه ربما ترك كتابه مفتوحا عندها حتى اصل واقراها بنفسى . .

والحقيقة التى لا مراء فيها اننى لم ادرك قط اى دور لعبه أبى فى حياتى . ولسوف يستمر اثره باقيا خالدا فى نفسى حتى بعد مماته الا بعد فوات الأوان .

كان يحاول دائما ان يعلمنى كيف نتخاطب بلغة العيون تماما كما كان يفعل هو حين يرمقنى بنظراته الفاحصة ، يستشف ما يدور براسى . وبقرا ما يختلج بين جوانح نفسى دون حاجة الى كلام او حديث ، ومن ذلك انى فهمت حينما رأيت الحزن فى نظراته ذات يوم انه قد حدس بأنى اميل الى الجانب الذى يقف فيه خصمه بوربل، وان فى نفسى ثورة عارمة ضد اولئك المحكومين الذين يقبلون الخنوع ويدينون بالطاعة العمياء دون مناقشة من امثال نيكولاس ووالدته ؟

وكثيرا ما سألتي ضيوفنا كما اعتاد أصدقاؤنا ان يسألوك ؟

ـ ما الذى اعتزمت أن تكونه عندما تكبر ؟ أمحافظ مثل ابيك ؟

وكنت فى طفولتى أجيب نفيا ، وكنت اقولها بحدة وخشونة طالما اثارت ضحك الجميع .

ـ طبيب ؟ محام ؟ مكتشف ؟

وكنت أعبس غاضبا ، وفى نفسى احساس غامض من الخجل لانى عجزت عن الجواب . وكان أبى يسرع لنجدتى . فيغير الحديث فى موضوع آخر .

ولقد كان لمعظم اصدقائى فكرة أو هدف يضعونه نصب اعينهم منذ طفولتهم ، يسعون جاهدين لتحقيقه دون أن يحيدوا عنه قيد أنملة ، وفى النهاية يسعدون بتحقيق أحلامهم .

أما أنا فقد كان مجرد التفكير فى ذلك السؤال يفزعنى ، واشعر بتقصيرى لجهلى بالمكان الذى سوف اشغله ، كما لو كان ذلك هروبا منى نحو تأدية واجباتى فى المجتمع ، وذلك على حسب تفكيرى كان لا يعادله الا شعور الجندى الجبان الذى يفر من ميدان الحرب متعللا باوهى الاسباب .

وحين كنت أخلو لنفسى وابدأ فى تحليل رغباتى وميولى حتى أصل الى معرفة نوع العمل الذى يروقنى وأعتقد أنى سأفيد وطنى به فى صدق وعزيمة أجد نفسى عاجزا تماما عن العثور على ضالتى حتى بلغ منى اليأس حدا آمنت فيه بانى شخص فاشل لن يوفق فى أى مجال ، وربما انتهى بى الامر فاصبح كما مهملا معزولا عن تأدية أى دور هام فى المجتمع .

كنت أشعر بغضاضة فى ان أصير عبدا لاية وظيفة تربطنى فى مكان واحد ، كذلك لم أكن قوى البنية مشدود العضلات ميالا الى التفكير والابتكار بحيث أختار العمل الآلى او اليدوى ، ولم اكن أهوى الرياضيات حتى اكون مهندسا ، ولا علم الحياة والحيوان حتى اغدو طبيبا ، وهكذا كانت تمر أمامى شتى الصور ، فأنفر منها جميعا .

اما صديقى نيكولاس فكان يصر على أن يصير طبيبا مهما طال به الزمن !

وظلت تلك حالتى حتى بلغت الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة وحينئذ وجه لى احد النواب ذلك السؤال التقليـــدى مرة اخرى وجدت نفسى أجيبه فورا ودون سابقة تفكير!

ـ اظننى سادرس القانون .

وفوجىء أبى بذلك وكان حاضرا ، فابتسم مسرورا

هل اسعده ان اقرر ذلك اخيرا ، واسلك الطريق الذى طرقه قبلى ؟

ذلك ما اعتقدته ، ومن ثم لم اغير اجابتى قط .

ـ سوف ادرس القانون .

وكما أخبرتك فى مرة سابقة ، لم يكن ذلك لحب دفين مفقود ، أو التعلق بالقضايا والغوص فى مشاكل الناس ومتاعبهم : بل انى كنت ارتعد علما لمجرد تصورى بانى سأقف فى حرم العدالة المقدس أواجه القضاة المحترمين والخصوم والمحامين واتلاعب بالالفاظ الرنانة ، وافسر مواد القانون بالطريقة التى تنقذ راس موكلى من حبل المشنقة نظير اجر معلوم!

ولكنى وجدت فى تلك الاجابة ملاذا هدا به بالى وارتاحت اليه نفسى فلم أعد أشغل قلبى وتفكيرى فى البحث عن مستقبل لى بعد ذلك واذا كان فى ذلك ما يبعث السرور فى نفس ابى فلا باس أن احذو حذوه ، وليكن بعد ذلك ما يكون .

ونجحت فى البكالوريا ، كما نجح ايضا نيكولاس فى العام نفسه « ١٩٢٦ » بعد زواج شقيقتى ببضعة شهور .

وان الدهشة لتستبد بى حينما ارى تلك الاعوام الطويلة بما حفلت من احداث ومشاعر واحاسيس وقد اختصرتها فى صفحات قليلة تقرؤها فى دقائق : ومع ذلك فانى ابذل جهدى لأحدثك بكل شىء واشعر فى بعض الاحيان بانى اضيف اشياء كانت مجهولة لى إبان صباى وطفولتى ، ولم تتكشف لى الا الآن .

وفى اكتوبر دخلت كليـــة الحقوق فى « بواتييـــه » حيث استأجر لى والدى غرفة مفروشة فى احد البيوت الخاصة خلف

مجلس المدينة ، كان بيتا صغيرا جميلا يملكه السيد بلانكبان وزوجته ، واعاد لنفسى ذكريات بيوت مدينة فتيلى ورائحة مطبخ والدة نيكولاس .

واكاد ارى ابى الآن انيقا رشيقا نبيل المنظر كما كان دائما ؛ يقف على باب غرفتى بعد أن تركتنا صاحبة البيت نخلو لانفسنا .

كانت جدران الغرفة مغطاة بورق اصفر اللون مزين بوردة صغيرة حمراء ، وبها سرير خشبى متين الصنع عليه حشية سميكة وملاءة بيضاء ، واغطية صوفية من نوع ممتاز ، وفى المدفأة نار حمراء تتاجج ، ومن خلال النافذة تبدو أسطح البيوت المجاورة المغطاة بالقرميد الأحمر .

وفتح ابى النافذة ، ونظر يمينا ويسارا ، وكان احد باعة الفاكهة قد توقف لتوه بعربته أمام باب الدار ، وكانت الساعة لم تتجاوز العاشرة صباحا ، والسماء ملبدة بالسحب تنذر بأمطان وشيكة الهطول ..

ـ حسنا يا ولدى ؟

واظن انى ابتسمت ابتسامة باهتة .

وفى حركة آلية مضى يفتح ادراج « البوفيه » المجاور لصوان ثيابى ، ثم فتح ضلفتى الصوان حيث كانت « الشماعات » تنتظر ثيابى ، ثم راح يتامل قطعة السجاد السميكة بجوار الفراش .

ـ ينبغى ان اعود الى لاروشيل .

ـ اجل .

وكنا نقف : احدنا فى مواجهة الآخر ، كلانا يشعر بالاضطراب .

وكان ابى هو الذى نفض عن نفسه الحيرة والاضطراب ، فقال :

ـ حسنا ، هذه هى الحياة !

كلمات قليلة تحمل كثيرا من المعانى والمشاعر .

وقبل ان يدلف من الباب خارجا استدار نحوى وهو يقول :

ـ هل سنراك فى ايام السبت ؟

ـ اعتقد ذلك ، بل من المؤكد اذا لم ...

ـ الى اللقاء يا ولدى .

وهكذا تركنى بمفردى اواجه المستقبل معتمدا على نفسى لاول مرة .

الفصل السابع

كنت وقت ذاك في الثامنة عشرة من عمري ، قوى البنيان رشيق القوام نشيط الحركة فخورا بدراجتي البخارية الجديدة التي اهداها لي أبي لمناسبة نجاحي في البكالوريا ، ولم اعد طفلا يلبس البنطلون القصير او حدثا بالصف الثانوي ، بل في المرحلة الجامعية انتظم في سلك الرجال ، واتنفس بملء رئتي في غرفة خاصة بي على ابواب حياة جديدة ، اخطو خطواتي الأولى بغير قليل من الرهبة والخوف .

وذهبت الى لاروشيل يوم السبت من ذلك الأسبوع ، ثم كل سبت من الأسابيع التالية ماعدا الاسبوع الثالث ، حيث كنت أعود الى غرفتي التي خيل الى أنها تغيرت كثيرا،واتردد على قاعة الطعام لظلالها وأضوائها الخافتة ، حيث تواجهنى نظرات أمي المشدودة للامام وصوت فاشيه الكريه لأذني ووجهه الذئبي الممقوت .

ولم اتلق من نيكولاس سوى بطاقتين يطمئنني فيهما على ان صحته جيدة وعلى أن أموره تسير على خير ما يرام في بوردو وخاصة أن أساتذته الجدد « قوم مهذبون » واضاف ان لديه كلاما كثيرا يملأ عربات سكة حديدية ويدخره لي حتى نتقابل في اجازة عيد الميلاد .

ويدهشني ان اتبين فجأة كيف تخونني الذاكرة فاغفل بعض التفصيلات الهامة حينما أصل اليها ، او بعبارة أخرى اجد نفسي عاجزا عن ترتيب الوقائع على حسب توقيت حدوثها وارى الصور تتابع امام ناظرى في سرعة خاطفة الأمر الذي يتعسر عليها ربطها بما كانت عليه من ترتيب ونظام .

فمثلا احدى تلك الصور ارى فيها نفسي - يوم الاحد الأول من سفرى - واقفا بميدان الجيش بمدينة لاروشيل . واقفا في الردهة الخارجية ادخن احدى سجائري في اثناء الاستراحة بسينما اوليمبيا ، ومر بي احد رفاقي السابقين يتأبط ذراع صديقة حسناء ، وما كاد يلمحني حتى اشار لي بعينه باسما وكان الطقس في تلك الليلة باردا والسماء ملبدة بالغيوم فعدت مباشرة الى مقرى

بدار المحافظة ، وكانت شقيقتى وزوجها يستقبلان بعض الاصدقاء فى غرفة الجلوس ويتحدثون جميعا بصوت مرتفع ، فتسللت مباشرة الى غرفتى التمس بين جدرانها الباردة دفئا .

ومنظر آخر فى بواتييه : فى الاحد الثالث الذى لم اسافر فيه الى لاروشيل ، حيث ظلت السماء تمطر مدرارا منذ الليلة السابقة، وفى الصباح كانت الطرقات كلها مغطاة بالجليد . فانطلقت الى المشرب وانتحيت مائدة منعزلة ، احتسى كأسا من الجعة واراقب بعض طلبة الصف الثالث وهم يلعبون البلياردو .

صور كثيرة أنشرها أمامى كأوراق اللعب ، ومن بينها ايضا ما حدث فى ليلة عيد الميلاد حينما كنت أجلس مع صديقى نيكولاس فى احد مقاهى لاروشيل نتحدث ، واذا امسك نيكولاس بطرف أى حديث ، فلك أن تراهن بما شئت انه لن يكف أبدا عن الخوض فيه ، وهكذا ظل يتحدث فى موضوع واحد حتى الواحدة صباحا حينما أوصلنى فى الطريق الى باب المحافظة ..

وقال : لابد من ان نجد من يشاركنا فى عطلتنا ، ولسوف اعثر على ضالتنا سريعا وحتما .

وكانت ثمة شجرة عيد ميلاد هائلة الحجم تحتل غرفة الجلوس لم تكن لنا ، انها شجرة رسمية اقيمت من أجل اطفال وابناء موظفى المحافظة والموظفين انفسهم ، ولقد احتفلوا جميعا بأخذ هداياهم من بين فروعها عصر ذلك اليوم ، وكانت اختى قد انطلقت مع فاشيه لمشاهدة بعض الاحتفالات الليلية وامى نائمة ، ووجدت أبى يقرأ فى هدوء بغرفته وفى ركنه المحبب الى نفسه ، وكان دخان التبغ يملأ الغرفة اكثر من ذى قبل .

ـ ميلاد سعيد يا أبتى .
ـ ميلاد سعيد يا بنى .
ـ هل أمضيت وقتا طيبا ؟ .
ـ تحدثنا طول السهرة ، انا ونيكولاس فى مقهى دى لابيه ..

وكانت معرفته بنيكولاس سطحية يراه حين يحضر لزيارتى ، لكنه لم يستوقفه ولم يتحدث معه .

ــ هل «ماما» على ما يرام ؟»

ــ نعم ، لقد بكرت فى الذهاب الى فراشها كعادتها وسالحق بها بعد قليل ؟»

ولا ريب فى انه كان يريد الانتهاء من الباب الذى يقرأ فيه او ربما الكتاب كله .

ــ طابت ليلتك ».

ــ طابت ليلتك »

* * *

واستيقظت فى الصباح التالى محموما ، آلام قطيعة فى كل جسمى ، طعم مرير فى لسانى ، وحين حاولت النهوض اصطكت ركبتاى فلم تقو ساقاى على حملى ، ولم تمض سويعات حتى ظهر البرد على وجهى فاحمر انفى ، واصابنى الصداع حتى كاد ينفجر له راسى ، ويبدو انه كان لدى استعداد للاصابة بالانفلونزا ، وشجعها السهر الطويل .

وامضيت ثلاثة ايام لا اخلع عنى منامتى ، اجر جسمى المنهوك تنقلا فى صعوبة بالغة من الفراش الى المقعد الكبير ذى المسندين ، احاول القراءة احيانا ، ثم انطلع من النافذة احيانا اخرى ،وكرهت السجائر فقد كان للدخان مذاق كريه فى فمى .

كان عيد الميلاد فى ذلك العام شديد القسوة قارص البرودة حرارته هبطت عدة درجات تحت الصفر فتجمد كل شىء ، حتى الحياة نفسها تجمدت عن الحركة ، وفى الساعات الاولى من الصباح كنت اشاهد المؤمنين الذين هرعوا لحضور قداس الصباح فى الكنائس ، والمخمورين الذين لفظتهم المشارب والحانات بعد سهر طويل ضحكوا وعبثوا ورقصوا فيه ما شاء لهم المرح ،وكل من اضطرته ظروفه للوجود خارج الابواب فى تلك الساعة كانوا يرتعدون وقد غطى الجليد رءوسهم حتى اقدامهم ، وكانه العهن المنفوش ، بل خيل ان السماء والارض حتى الحجارة التى شيدت منها المنازل وارصفة الطرق واعمدة المصابيح كلها كانت تلمع ببياض ناصع كانها نصال سيوف او خناجر حادة ماضية .

واقبلت طباختنا بياتريس تحمل لى افطارى ، ولكنى نحيته جانبا ولم المسه وبعد ذلك جاء ابى بمنامته ورويه المنزلى .

ـ امريض انت ؟.

ـ انفلونزا بسيطة على ما اعتقد .

ومكث بجوارى حوالى عشر دقائق ثم انطلق الى مكتبه ، ربما ليستأنف القراءة .

ولم يستيقظ شقيقتى وزوجها الا وقد انتصف النهار، فحضرا بعد الغداء لزيارتى ، دخلت آرليت فى تردد تسالنى عن صحتى وهى تختلس النظرات نحو زوجها الذى رفض الدخول الى غرفتى وظل واقفا بجوار الباب المفتوح لأنه يخشى الاصابة بالعدوى . ثم عجلا بالانصراف معتذرين بمشاغلهما .

ولم يتصل بى نيكولاس تليفونيا فى ذلك اليوم ، ولا فى اليوم التالى ، حقيقة لم يكن بيننا موعد محدود لأى لقاء ، ولكننا كنا متفقين على قضاء الجزء الأكبر من اجازتنا معا ، الأمر الذى ضايقنى لعدم سؤاله عنى .

لماذا شعرت بالضياع والوحدة ؟ كان كل ما حولى صامتا ساكنا سكون القبور : دار المحافظة ذات الطوابق الكثيرة والأجنحة المتعددة وعشرات المكاتب والغرف التى لاتخلو ابدا من الحركة والعمل والموظفين والسعاة وأصحاب المصالح والأعمال ـ كانت كلها مهجورة خاوية على عروشها فى عطلة عيد الميلاد .

حتى حركة المرور فى الميدان الكبير كأنما قد اصيبت بالشلل ؟ عدد ضئيل من السيارات ، اقل كثيرا مما اعتدنا رؤيته ، ونفر قليل من المارة يهرولون مسرعين وقد دسوا أيديهم فى جيوبهم ورفعوا ياقات معاطفهم على حين كنت ألمح حلقات كثيفة من الدخان ينبعث من انوفهم وأفواههم تطوف حول رءوسهم .

واذكر انى رأيت اسرة تمضى فى الطريق ـ قرب الظهيرة ـ لعلها كانت فى سبيلها لزيارة جد أو جدة لمناسبة العيد ـ مؤلفة من خمسة افراد ـ من بينها ثلاثة اطفال . ارتدوا جميعا ثياب العيد الجديدة الزاهية . واحد الأطفال فى الرابعة او الخامسة

حولَ رقبته وشاح ثقيلَ احمر ، وفوقَ راسه طاقية صوفية حمراء، وكانت امه تجذبه وتجره فى عنف وقوة حتى يسير وهو فى عناده العجيب يبدو مشاكسا لا يريد .

ويبدو أن الوالدين كانا فى عجلة من امرهما ، اعصابهما قلقة متوترة بعد سهر طويل وصباح حافل بالصخب والضجيج مع ما اقتضاه ارتداء الجميع لثيابهم من عناء وجهد كبير ، فكنت ارى افواههم تفتح ثم تغلق دون ان اسمع حديثهم من خلال زجاج نافذتى ، واخيرا دفعت الام طفلها الصغير فى ظهره فسقط متزحلقا بثيابه الجديدة فوق الأرض المبتلة .

ولابد انها كانت تامره بأن يستوى على قدميه ، وتهدده بحرمانه من لعبه وهداياه او بأية عقوبة أخرى ، ولكن الشيطان جعل اذنا من طين ، واخرى من عجين ! وكأنه وجد متعة عميقة فى أن يثير اعصاب والدته الى النهاية ، فلما نفذ صبرها وضاق صدرها تحولت نحو زوجها تنفث ثورتها وتصب عليه غضبها ، ولا شك فى انها اتهمته بالوقوف ساكنا مكتوف اليدين كأنما الأمر لا يعنيه ، ووصمته بالضعف والتخاذل وتدليله للأولاد وافساد اخلاقهم ، او شىء من هذا القبيل .

وكان يرتدى معطفا قديما أسود اللون ، ووقف برهة مترددا ينصت لصياحها فى ضيق ، واخيرا جذب وليده من يده جذبة قوية حتى اقامه على ساقيه ، ثم لطمه على وجهه فى عنف ،ولاشك ابدا فى انها آلمت الاب اكثر مما تالم لها الطفل .

ولقد هزتنى تلك اللطمة ، فوثبت من مكانى كأنما قد لدغنى عقرب ، وفى تلك اللحظة شعرت برباط خفى يجذب بين روحينا ، انا وذلك الاب المسكين ،وشد ما كانت دهشتى حينما رفع نظره الى اعلى وشاهدنى خلف النافذة ، ولا أستطيع أن أصف لك معانى الاسف والخجل التى قراتها فى وجهه تلك اللحظة وهو يطاطىء راسه كأنه يعتذر للدنيا باسرها عما فعل .

* * *

لم يتصل بى نيكولاس فى اليوم الثالث ،

وفى اليوم الرابع سمعت طرقا على البــاب فقلت « ادخلْ » واذا به نيكولاس يحمل معه نسيم الحياة والدنيا خارج تلك المقبرة التى اسكنتنى فيها المرض ، وكانت ثيابه مبتلة بالماء عليـــها بعض آثار الجليد .

ـ قيل لى : انك لست على ما يرام ، وارجو الا يكــون الامر خطيرا ؟.

ولم يتريث حتى اجيب ، كان متحفزا ممتلئا بالانبـــاء التى يدخرها لى بتلك التطورات التى بدات تحــدث له فى بوردو .وقع اسيرا لها ولم يستطع الفكاك منها .

ـ لدى سيلٌ من الانباء يا صديقى العجوز ، انباء طيبة ، انباء مثيرة سوف تجعلك تقفز من فراشك فى التو والســـاعة ! اتذكر ما كنا نتحدث فيه ليلة عيد الميلاد ؟.

كانت وجنتاه محمرتين بعد ان لفحته برودة الهواء القارص فى الخارج ، ولم ينتظر حتى يجلس ، كان يتحرق انفعالا ، نافد الصبر غاضبا حينما رآنى اجلس هادئا فى مقعدى الوثير وقــد دثرت ساقى بغطائى الصوفى الثقيل وكانى عجوز كسيح ،وبالقرب من يدى ابريقٌ من البللور به عصير الليمون .

وكان يصيح فى انفاس لاهثة ، كانما قد قطع الدرج الى غرفتى عدوا .

ـ ابشر يا ولدى ! لقد واتانى الحــظ الســعيد بمحظيـــة موفقة و ...

ـ اتسمح لى بالتدخين ؟

ـ بالطبع .

ـ وانت الا تدخن ؟

ـ ليست بى رغبة الآن .

ـ اعرنى سمعك وانصت جيدا لما اقولُ : اننى سانحث الكَ عن عروس ممتازة ولعلى اوفق .

ولقد كان نيكولاس يتميز على الدوام بروحه التى تفيض دعابة ومرحا .

ولابد انه قد صعق لجمودى وعدم تجاوبى لروحه الملهفة وحماسته المتدفقة ، كنت انصت اليه دون اهتمام او اكتراث ، وهو الذى يحاول ان يكسب كلماته رنين النصر ، وما كان ذلك حسداً منى لما نال من نعيم قد حرمته ..

وجلس اخيرا على احد المقاعد بوضع عكسى وجهه الى المسند عاقدا ذراعيه حول ظهر المقعد . وهو يجذب انفاس سيجارته من حين لآخر وعيناه تلمعان غبطة وسرورا حتى قضينا سهرة ممتعة فى شتى الاحاديث .

الفصل الثامن

كنت امر خلال اهم عامين من مراحل حياتى ، بل اجمل واخطر لحظات عمرى ؛ ومع ذلك فلم اكن ادرك ذلك ، ولم اكن لاعترف به لأى مخلوق فى الدنيا ، وربما كان ذلك لوجود فارق كبير بين ماكنت آمل فى ان يحدث لى ، وما وقع لى فعلا ، ومن العسير ان توقظ اى انسان من حلم جميل للأبد الا اذا ركلته بقوة !.

وحتى الآن .. مازالت تلك المحاورة الخالدة التى تدور بين اكبار السن ومن يصغرونهم .. تبعث فى نفسى الكثير من الحنق والغضب ، بل لقد شاهدتك بنفسى حين تسمع ذلك السؤال .. تنكمش فى نفسك برغمك فى شك وارتياب :

ـ كم عمرك ايها الفتى ؟.

ويجيب الشاب مترددا ، لانه تعلم ان يتادب مع من يكبره .

ـ ثمانية عشر عاما .. يا سيدى .

والاجابة هى هى دائما لا تتغير ، فالسائل يهتف متكلفا الدعابة والضحك :

ـ احلى ايام العمر ، انى لاهب ما املك حتى اعود لذلك العمر مرة اخرى . وربما اردف وهو يتنهد من اعماقه :

ـ على شرط ان يكون لى ما لدى الآن من تجارب !.

اى تجارب يعنيها ذلك الاحمق ؟ هل الانسان لن يستطيع فى

حياته الواقعية ان يقف بطموحه عند خط مرسوم ، او يطفىء ظماه الشديد للوصول – مهما فعل – الى قمة الاشباع والاكتفاء اللانهائى ؟ كانكم ايها الشباب لم تصلوا الى تلك النتيجة بعد ! .

وتتشوقون عن براءة الطفولة وجمالها كان اطفالنا لا تواجههم منذ أن يدرجوا على الأرض ، مئات المصاعب والمشاكل المؤلمة التى يحاولون مناقشتها بينهم وبين انفسهم .

ونحن نتلهف فى شره ونهم على السعادة ، ونشعر بانها فى متناول ايدينا ، ولكن ما نكاد نمسك بها حتى تفلت من بين أصابعنا كالزئبق ، وتقبض على الهواء بسبب تافه لم يكن فى الحسبان قد يكون مجرد ابتسامة ساخرة او كلمة تفلت منا دون قصد !.

* * *

ولقد حدثت بالأمس احدى تلك المشادات العائلية العنيفة التى قلما تحدث فى حضورك بل لعلها الوحيدة التى شهدتها انت ولو وقعت فى ظروف أخرى ما كلفت نفسى عناء الاشارة اليها فى هذا المقام وخاصة انى الآن احدثك عن شبابى ، ولكنها كانت مهزلة لم تخل من فائدة ومغزى عميق فى الوقت نفسه ، ولذلك فانا اذكرها لانها جاءت فى الوقت المناسب لترسم صورة ناطقة عن سلوك الاباء نحو الأبناء !

ومن الغريب انه لم يكن ثمة اية مقدمات ، او كما يقول الانجليز (عاصفة والسماء صافية) ، وكنا نجلس على مائدةالغداء بحوالى الواحدة والشمس تغرقنا باشعتها الساطعة والجو بديع وكل شىء جميل حتى زهرة الجرانيوم المملوكة للانسة اوغستين كانت كانها ترقص من السعادة .

ولا اتذكر فيم كنا نتحدث ؟ لكنه كان حديثا مرحا لا اهمية له حينما التفتت امك فجاة وكنت قد نسيت انه يوم الخميس .

– هل ستاتى معى لتزور عمتك يا جان بول ؟.

ولم اكن اعلم ان عمتك تقيم حفل استقبال فى بيتها ، كذلك كنت انصت للحديث بنصف اذن ، وسمعتك تسالها :

ـ متى ؟.

ـ حوالى الخامسة ، وسيكون هناك بعض الشخصيات ممن يفيدك كثيرا أن تتعرف بهم ..

وكنت اكره هذه العبارة ، ومع ذلك فلم تطرف لى عين ، ولم اشأ ان اؤثر عليك ، ولمحت التردد والحيرة فى عينيك ، وكنت افهم ذلك جيدا .. التردد الذى يصيبك ويصيب كل الشبان فى سنك حينما تعترضهم عقبة من العسير تخطيها ، ولابد من تخطيها أيضا .

ـ هذا شيء يؤسف له حقا يا «ماما» .

ـ ولماذا ؟.

ـ لان على واجبا منزليا لابد ان انهيه عصر اليوم فى الرياضة والحساب .

ـ ولماذا لا تبدؤه فورا ؟ .

ولاريب فى أن من حق أمك ـ وقد غدوت رجلا ملء ثيابك ـ أن تفخر بك أمام الناس ، ولكنها تغفل عن ان أصدقاءها لا يمكن بالضرورة القصوى أن يكونوا أصدقاءك ، وانك لا تشعر بأى حب او رابطة تربطك بمن يترددون على صالون فاشيه او عمتك آرليت ، ولا يروقك ذلك الوسط او يبعث فى نفسك اى صدى من متعة او اهتمام تماما كما اشعر انا شخصيا .

ـ ساحاول ذلك يا اماه مادامت هذه مشيئتك حقا ، ولكنى لن أستطيع ان أؤكد لك .

وكان من عادتها ـ اذا ذهبت لاحدى حفلات الكوكتيل التى تقيمها عمتك ـ ان تعود على العشاء ، وكثيرا ما كانت تتصل بنا تليفونيا وتطلب ان نتناول طعامنا بدونها ، فلماذا عادت هذه المرة فى وقت مبكر وفى حالة نفسية ثائرة ؟ .

ولقد وجدت صديقك الجديد ـ زابو ـ معك فى غرفتك ، ولم تبد اى تعليق على ذلك وقتئذ فى مواجهته ، بيد انها ما كادت تجلس للعشاء حتى انطلقت تنفث من غضبها ..

خاطبتني قائلة :

ـ آلين ! اتعرف لماذالم يستطع جان بول مرافقتي عصر اليوم؟ ».

ويبدو انى اصاب بالصمم احيانا !.

ـ الم تسمع ما قلت ؟.

ـ بلى طبعا .

ـ ولماذا لا تقول شيئا ؟.

ـ هل سمعته يتحدث عن واجب الحســاب المنزلى الذى كان «من الضرورى» ان ينهيه ؟.

ـ اجل .

ـ وهل تعلم ما ذلك الواجب الذى حال بينه وبين مرافقتي ؟».

وبدات انت تقول فى هدوء :

ـ ارجو ان تعيرينى سمعك يا اماه ، دعينى اوضح الامر لابى».

ـ ليس هناك ما يدعو للايضاح ، هل حصل أو لم يحصل انى وجدتك مختليا بصديقك الجـديد الذى يشــبه فى منظره باعة الروبابكيا ؟.

ـ انا ؟.

ـ هل كان ثمة موعد سابق بينكما ؟.

ـ سوف ...

ـ وبعبارة اخرى : كنت تعلم انه آت ومن اجله هو ...

ثم تحولت الى ...

ـ ان ما يبعث فى نفسى الضيق والاشمئزاز هو افتقاره الى الصدق والصراحة ، واعتياده التلاعب والكذب ، وطريقته الخبيثة فى اصراره على ان يفعل ما يريد ، وانت ! انت تجلس امامه تعضده وتؤازره ! .

ـ انى لا اعضده ولا اؤازره !.

ـ ولكنك لا تؤيدنى ايضا ، ولاشك انك مسرور لذلك !.

لا ، لا ! واذا شئت الصدق فانا الومكما معا فى قرارة نفسى ، وخاصة والدتك لانها بالغة الرشد .

لقد تناسيت او نسيت ايام ان كانت هى فى مثل عمرك ؟ لكنى لم انسه ، وذلك هو الفارق بيننا ! فقد اقسمت يمينا لا احنث فيه بينى وبين نفسى الا انسى ، ولقد بذلت جهدى حتى الآن فى ان احافظ على قسمى .

انه كذاب ؟ مخادع ، يروغ من بين اصابعك ، كما تروغ السحالى ، ومع ذلك اراك تبدو هادئا ناعم البال ؟ ترمقه فى رضا واستحسان .

ووالدتك تخلط بين الموافقة او الرضا ، وبين الفهم او الادراك او العفو ..

وربما كانت هى ايام شبابها كذابة مخادعة ، حتى لو كانت قد كفت الآن عن الكذب والخداع .. تماما كما كذبت انا ، وكما يكذب بعض الفتيان ايضا ، ويجدون انفسهم مرغمين على الكذب ، لان الاباء يفرضون عليهم قائمة طويلة من المحرمات !.

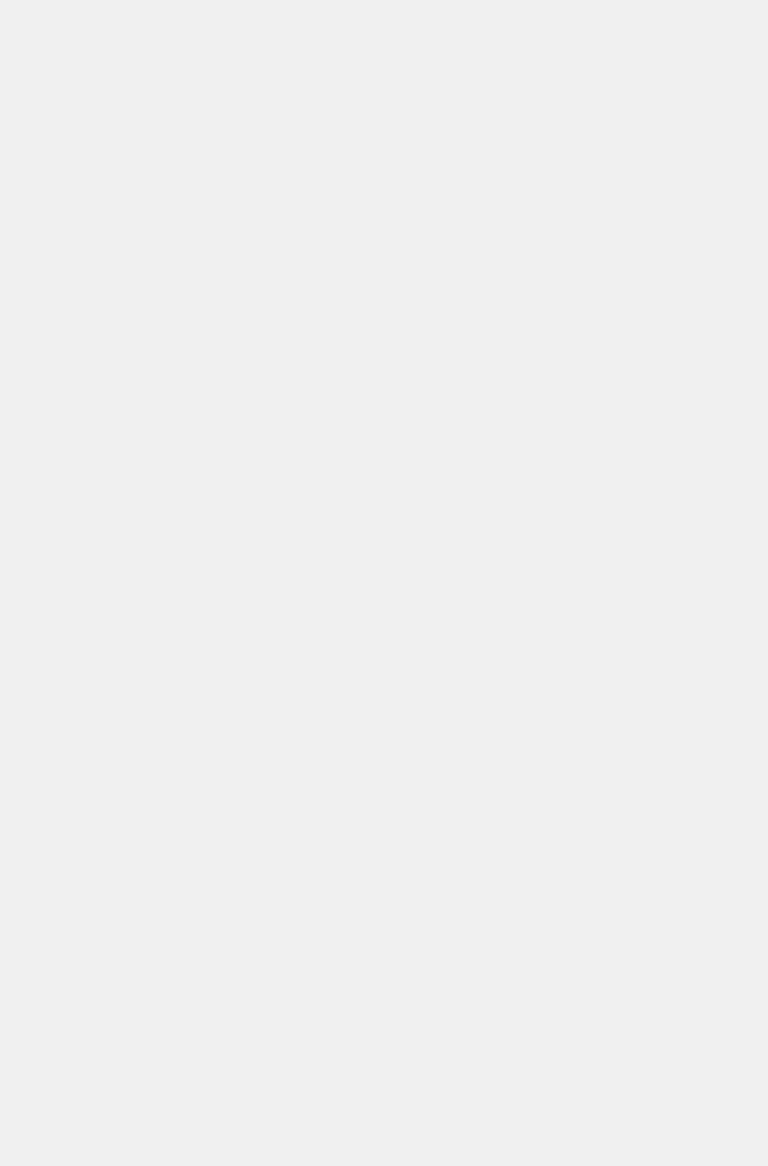
كثير مما تهفو اليه قلوبهم ممنوع منعا باتا ، وكلمة (لا) الناهية تبدأ كل جملة توجهها اليهم .. ونحن المسئولون عن انحرافهم وخداعهم لنا وكذبهم علينا ..

ومع ذلك فالطفولة تمقت الخداع والكذب اكثر منا نحن الكبار ، وهم يستاءون فى اعماقهم من ارغامنا لهم على الكذب مدنسين طهارتهم التى خلقوا عليها حتى لا نفسد عليهم متعهم البريئة ! .

وختاما اقول لك فى هدوء وحب وحنان !

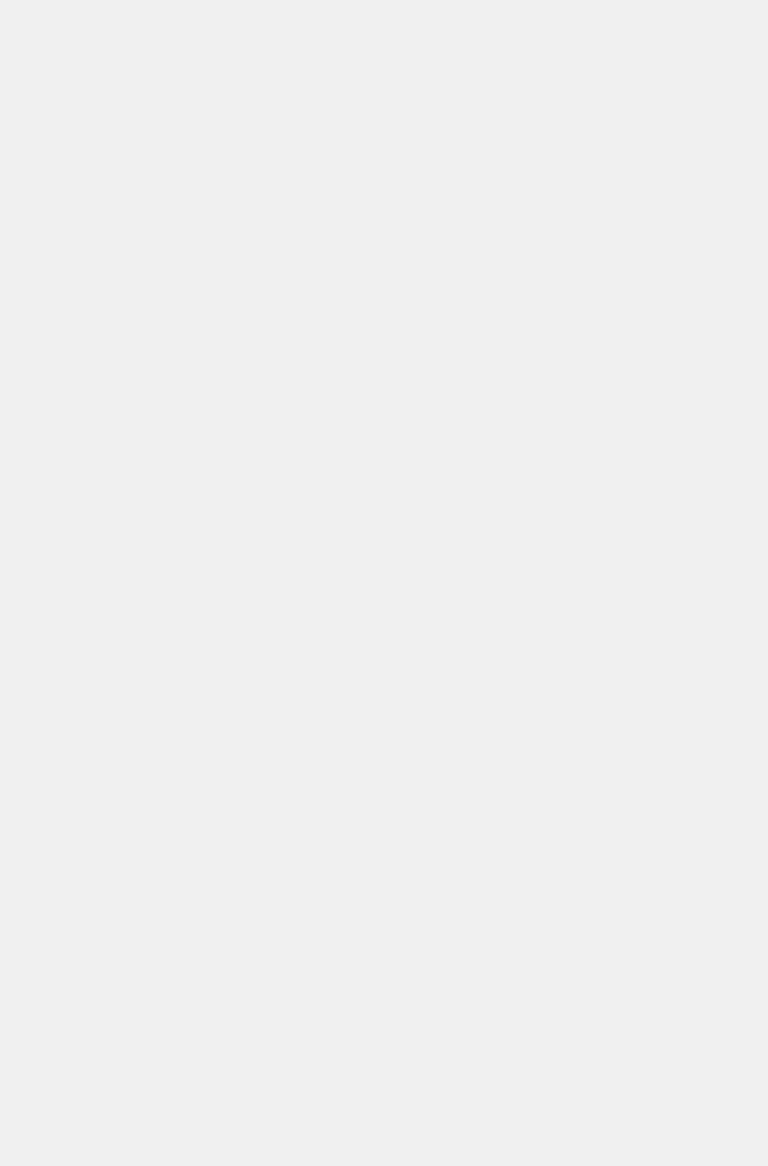
طابت ليلتك يا ولدى .

« تمت »





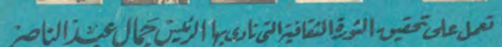
الدار القومية للطباعة والنشر



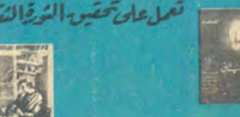
وزارة الثقافة والإرشاد القومى

الدار القومية للطباعة والنشر





تعمل على تحقيق الثورة الثقافية التى نادى بها الرئيس جمال عبد الناصر





القاهرة



مركز عالمى للإشعاع الثقافى
كتاب كل ست ساعات











مكتبات الدار:

نيويورك — لندن
الجزائر — بيروت
طرابلس — بغداد
الخرطوم — الاسكندرية
القاهرة